005

2020

2.1.2020

دفاتر ممدوح حمادة

دفتر الهذيان



دفاتر

ممدوح حمادة

دفتر الهذيان

قصص قصيرة

دفتر الهذيان



دفتر الهذيان

قصص قصيرة

تأليف: ممدوح حمادة

تصميم الغلاف: لؤي حازم

ISBN: 4 - 52 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2019

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

القصص

هستيريا

بسبب الحماس منقطع النظير، كانت مؤخرة عازف الدرامز تتقافز فوق مقعد كرسيه الدائري صعوداً وهبوطاً، وكان بقية العازفين يتمايلون على الإيقاع الذي تصدره آلاتهم، وبعضهم يدق برجله الأرض، بينما كان الركاب في قاعة الاحتفال على متن السفينة يرقصون بجنون عندما دخل القبطان تعتريه نوبة ضحك هستيري.

وبسبب صوت الموسيقى العالي والإضاءة الخافتة لم ينتبه إليه أحد في البداية. ولكن الراقصين الذين كانوا على الأطراف، عندما لاحظوه يقهقه بصوت أشبه ما يكون بالصهيل مشيراً إليهم بإصبعه وكأنهم سبب ضحكه، استغربوا لأن أحداً لم يشاهده من قبل مبتسماً. اقتربت منه فتاة وقامت بحركات راقصة محاولة جره إلى حلبة الرقص، ما جعل زمامه ينفلت من عقاله أكثر ويقهقه

بشكل جنوني كان يشعر معه بأن خاصرته ستنفتق، فسندها بكفه، وبكفه الأخرى حاول مسح الدموع التي انهمرت من عينيه بسبب الضحك، ما جعل نظارته تسقط على الأرض وتتكسر، ولكنه لم يأبه بذلك. علا صوت قهقهته على صوت الموسيقى فالتفت الركاب إليه، وتوقفت الفرقة عن العزف. أما هو، فعندما أصبح محطَّ اهتمام الجميع، دخل إلى وسط القاعة محاولاً تمالك نفسه، وعندما اقترب من الوصول إلى ذلك سأله أحد الركاب بنبرة يشوبها الفضول:

- ما القصة يا حضرة القبطان؟

أشعل هذا السؤال فتيل القبطان بعد أن كاد يسيطر على نفسه، فنظر إليه القبطان وعضلات وجهه لا تزال تصارع الرغبة في الضحك، وقال بصعوبة:

- القصة... القصة؟

ثم انفجر من جديد في ضحكه الهستيري المجنون، واتكأ على العمود المعدني الأملس المخصص لراقصات الستربتيز وسط حلبة الرقص واستند بظهره إليه، وعمل جاهداً حتى تمكَّن أو تهيأ له أنه تمكن من السيطرة على نفسه، وطالع وجوه الحضور بنظرة مبللة بالدموع لا يمكن وصفها إلا بالغبية، وعضلات وجهه لا تزال متحفزة. وعندما قال أحد الركاب، ويبدو أنه رجل مهم، بنبرة مداعبة:

- أضحكنا معك يا حضرة القبطان!

انفجر القبطان بالضحك من جديد، وسرعان ما انزلق بظهره على عمود الراقصات الأملس حتى لمس الأرض، ثم انبطح على بطنه وأخذ يضرب الأرض بقبضته. ثم تمكن من الالتفات إليهم فوجدهم متحلقين حوله، فتصاعد الضحك وأخذ يشير إلى عدد من الوجوه التي يبدو أن ملامحها شكلت سبباً إضافياً لنوبته الهستيرية، إلى أن انحنى أخيراً شخص لم يعد لديه القدرة على احتمال متابعة هذه المهزلة بحياد، فأمسك بالقبطان من تلابيبه وهزه بعنف صارخاً به:

- لماذا تضحك؟!

حاول القبطان تمالك نفسه من جديد، وحاول النهوض، وقال في أثناء ذلك بصعوبة بالغة مقسطاً الكلمة على أحرف ومقاطع:

- الســ... الســ... السفيــــــــــ... نه...

- السفينة، ما بها؟

صاح الرجل. فحاول القبطان الإجابة من دون أن يفلح، وذلك لأنه كلما نظر في وجوههم تصاعدت حالته الهستيرية، فاتكأ براحيته على ركبتيه وأخذ ينظر في الأرض متابعاً القهقهة ومحاولاً تمالك نفسه، فانحنى إليه الرجل العصبي المزاج مرة أخرى، وأمسك به من جديد ورفعه وأخذ يهزه بعنف سائلاً:

- السفينة... ما بها؟

- تغرق.

قال القبطان مغتصباً لحظة تكفي لنطق تلك الكلمة، وانفجر ضاحكاً من جديد.

سادت حالة من الصدمة عند سماع الكلمة، وعم صمت ثقيل لم يكن يقطعه إلا شهقات القبطان الذي كان على وشك السيطرة على نفسه. ولكن واحداً من الركاب سرعان ما أخذ يهتز مصدراً ما يشبه الأنين. نظر إليه عدد من الركاب فوجدوه يحاول كتم ضحك على وشك الانفجار، ابتسم البعض بينما فقد هو القدرة على السيطرة وانفجر ضاحكاً بهستيريا تشبه إلى حدٍّ ما هستيريا القبطان. أخذ الركاب ينظرون في وجوه بعضهم بعضاً ويبتسمون، ثم بدأوا بالانضمام إلى الجوقة الضاحكة واحداً إثر آخر، ولم تمضِ دقائق حتى كان جميع الركاب يتقلَّبون ويشدون خواصرهم لكيلا تتفتق من الضحك.

ظهر البحارة الذين كانوا في غرف الآلات وفي الأمكنة التي لا يدخلها الركاب، يحملون فؤوساً أخذوا يوزعونها عليهم، ولم يتوانَ الركاب الذين فهموا ما هو المطلوب من هذه الفؤوس عن عملهم، وأخذوا يحطمون قوارب وإطارات النجاة وأرضية السفينة وجدرانها، حتى أن قارباً سقط في الماء وفي داخله الشخص الذي كان يحطمه، وأخذ يغرق وهو منخرط في ضحكه الهستيري، وكان بعض الركاب يراقبه وهو يضحك ويزدادون معه هستيرية، وبعد غرقه شوهدة فقاعات ضاحكة تفلت من تحت الماء.

شواطئ القارات الثلاث المحيطة بذلك البحر كانت تعيش حياتها المعتادة، الموج يناطح الصخر هنا، ويزحف على صدر الرمل هناك، يغرق شخصٌ هنا ويُلفظ جثةً هناك، وكانت المقاهي عامرة بزبائنها من النساء والرجال المولعين بشرب القهوة أو الويسكي عند الشاطئ، يستمتعون بصوت هدير الموج وهواء الشاطئ العليل. عشاق هنا وهناك احتموا بالصخور وانصهروا بعيداً عن الأعين في عناق لذيذ، والبعض احتمى بتلك الصخور ليرتكب جريمة ما. كل شيء عادي جداً كما في كل يوم، الاختلاف الوحيد الذي كان يميز مساء هذا اليوم هو صوت ذلك الضحك الذي كان يتناهى إلى أسماع البعض وكأنه آتٍ من عرض البحر، والذي أخذ يتصاعد شيئاً فشيئاً حتى بدا في نهاية المطاف كما لو أن البحر يقهقه. انسل العشاق من أحضان بعضهم البعض وتوجهوا إلى الصخور العالية وأخذوا ينظرون إلى عرض البحر. الرواد في المقاهي المحاذية للشاطئ صعدوا إلى الطاولات وأخذوا يبحثون بعيونهم عن مصدر الصوت، والذين في الداخل تجمهروا عند النوافذ وأخذوا يبحثون عن مصدر الصوت، حتى السكارى زحفوا إلى النوافذ وأجبروا أنفسهم على النهوض والنظر إلى البحر.

لم يرَ أحدٌ في عرض البحر شيئاً، ولكنَّ ابتساماتٍ ارتسمت على وجوه البعض سرعان ما تحولت إلى جوقات من الضحك انضم إليها الجميع في هستيريا لم يسبق لها مثيل. ولم تمضِ

ساعة إلا وكانت شواطئ القارات الثلاث المطلة على ذلك البحر جميعها تقهقه بشكل هستيري.

سرعان ما بدأت أصداء هذه الهستيريا تنتقل إلى مدن وعواصم يفصلها عن الشاطئ سهول وجبال.

في إحدى العواصم، كان جنرال في الجيش قد ارتكب انقلابه للتو وجمع الجماهير ليحدثها عن المنجزات التي ينوي القيام بها، وعن جو الحرية والرخاء الذي سيؤمّنه لها. وكان على وشك التهديد بالضرب بيد من حديد على يد كل من تُسوِّل له نفسه أن يقف في وجه المد الديمقراطي الذي سيقوده الجنرال. ولكنَّ عاصفةَ الضحك التي داهمت فضاء المكان جعلته يصمت ويبحث عن مصدر الصوت، وكذلك فعلت الجماهير، وسرعان ما انخرط الجنرال والجماهير في هذه الهستيريا؛ فكان الجنرال يشير إلى الجماهير ويقهقه والدموع تكاد تنفجر من عينيه، وكذلك كانت الجماهير تفعل مع الجنرال.

في عاصمة أخرى، كانت قوات الأمن قد حاصرت المكان، وكانت على وشك الانقضاض على خلية عسكرية تعدُّ لانقلاب دموي سيبدأ بتصفية الرئيس المنتخب في انقلاب سابق وجميع أفراد حاشيته. وكان أفراد الخلية في الداخل قد بدأوا العد العكسي لإعلان ساعة الصفر. ولكن الضحك داهم الجميع قبل أن يبدأ الطرفان بتنفيذ ما عقدا عليه العزم، فالفيالق الأمنية في الخارج

انخرطت في الضحك لدرجة أن بعض العناصر أطلقوا النار عن طريق الخطأ، ويُعتقد أن أكثر من رصاصة طائشة قتلت أكثر من شخص كانوا قد خرجوا إلى الشرفات في محاولة منهم لتمالك أعصابهم.

الكثيرون في أماكن مختلفة تراخت عضلاتهم لدرجة أنهم تبولوا في ثيابهم. رجل صارم اعتاد ضرب زوجته لم يستطع أن يفعل شيئاً حين رآها تشير إلى البقعة التي ارتسمت على بنطاله بين الفخذين، على العكس تراخت عضلاته أكثر واتسعت مساحة البقعة.

برامج التلفزيون توقفت. والمذيع الذي كان يقرأ نشرة الأخبار انحنى باتجاه الطاولة وأخذ يقهقه ويضرب بقبضته على الطاولة، من كل محطات الإذاعة والتلفزيون كان ينبعث ضحك هستيري.

ابتلع الماء آخر طبقة من السفينة، وتوقف الضحك المنبعث من عرض البحر. المقاهي المشرفة على البحر أخذت تتمالك نفسها، وأخذ النزلاء يعودون تدريجياً إلى طاولاتهم. والعشاق بين الصخور عادوا للانصهار من جديد، كذلك فعل أيضاً المجرمون الذين عادوا لإكمال جرائمهم.

الجنرال المنقلب تابع وأعلم الجماهير بنواياه تجاه أعداء الديمقراطية. وانقضت قوات الأمن على مقر الخلية الانقلابية في العاصمة الأخرى قبل أن تعلن ساعة الصفر، وتمت تصفية أعضائها

بناء على أوامر عليا، وأعلن أنهم قتلوا في أثناء الاشتباكات، وتمت مصادرة أملاكهم ونسائهم وكل ما يمت إليهم بصلة.

الذين تبولوا في ثيابهم قاموا بتبديلها. وقام الرجل الآنف الذكر بضرب زوجته لأنها كانت تشير إلى البقعة التي تشكلت بين ساقيه.

وبينما كان مذيع النشرة الجوية الذي توجهت إليه الكاميرا بعد انتهاء الأخبار يعلن أن البحر هادئ إلى متوسط ارتفاع الموج، وأن الرؤية حسنة، كانت آخر الفقاعات التي غادرت السفينة التي رست على القاع تخرج إلى السطح وتتبدد هناك.

1989

الكلب

ربما بدأ ذلك منذ أكثر من عشرين عاماً. أفتح عينيَّ كل صباح فأرى صاحب الكلب منتصباً على باب غرفتي في يده بندقيته التي أعرف أنها محشوة. أقف، أرتدي ثيابي وأشد أربطة حذائي، وأتوجه بخطى وئيدة نحو الباب، فيفسح لي الطريق لكي أخرج. أتجاوز عتبة الباب ثم أركض هارباً، فيركض خلفي إلى أن تنبثق أمامي تلك الزاوية المتشكلة بين جدارين من البازلت. أستدير بوجهي إليه؛ عيناي مملوءتان بالرعب، وأتحسس بقدمي طريقي إلى الوراء، وأنحشر أخيراً في الزاوية. فيقف هو على بعد أمتار مني ويصوب بندقيته نحوي، ويطلق النار. أشعر بسيخ اخترق جسدي. أضع يدي على بطني ثم أرفعها إلى أمام عيني، فأراها ملطخة بالدماء. أصاب بالذعر، وأحاول الهرب، ولكن قواي

تخور وأسقط على بعد أمتار. أتمرغ في دمي، ويتقدم هو مني. ينحني إلى الأرض ويلتقط حجراً كبيراً يرفعه إلى فوق رأسه ثم يهوي به على رأسي. أسمع عظام جمجمتي تتحطم. أطلق عواءً حاداً ثم أنظر حولي مستغيثاً فلا أرى سوى أطفال تحلقوا حولي يتابعون المشهد بعيون زجاجية خالية من أي تعبير. يرفع الحجر ثم يهوي به من جديد، فأُطلق عواء خافتاً ثم أكشّر عن أسناني وتصبح جثتي باردة.

ينسحب الأولاد، ثم يعلق صاحب الكلب البندقية على كتفه وينصرف هو الآخر. أرفع جسدي عن الأرض وأسير نحو البيت، فأسمع خلفي وقع خطوات وأنظر إلى الخلف فأرى صاحب الكلب من جديد. أركض فيركض خلفي إلى أن تنبثق أمامي الزاوية المتشكلة بين جدارين من البازلت، فأستدير نحوه وأتراجع بحذر متحسساً الأرض بكعبي، ثم أنحشر في الزاوية ويقف هو مصوباً بندقيته نحوي ويطلق النار، وأشعر بسيخ يخترق جسدي. أتحسس بطني ثم أشاهد يدي الملطخة بالدماء وأحاول الهرب. أقفز ثم أسقط ويقترب هو ليرفع الحجر، فيهوي به أول مرة وأُطلق عواءً حاداً ولا أرى حولي إلا عيون الأطفال الزجاجية الفارغة تلك. ويهوي مرة أخرى بالحجر فأُطلق عواءً خافتاً، ثم أكشر عن أسناني وتصبح جثتي باردة. ينصرف الأطفال ذوو النظرات الفارغة، ويعلق صاحب الكلب بندقيته على كتفه وينصرف.

فأنهض وأتوجه إلى البيت، ثم أسمع وقع تلك الخطوات خلفي، وألتفت فأراه وأركض فتنبثق الزاوية، ثم...

في نهاية النهار أتعب أنا من الموت ويتعب هو من القتل. يذهب كل منا إلى بيته. ألقي برأسي على الوسادة منهكاً خائر القوى، وأغفو قبل أن يصل رأسي إلى الوسادة، فأراه في الحلم واقفاً وعلى كتفه بندقيته التي أعرف أنها محشوة، ويقول لي:

«اسمع، أنا لم أكن أكرهه، ولكن لم يكن أمامي خيار آخر. رحلت من القرية إلى المدينة، فلحق بي، حملته بسيارتي ونقلته إلى مدينة أخرى تبعد أكثر من مئة كيلومتر، وفي الصباح أفقت على نباحه. لم يكن أمامي وسيلة أخرى للتخلص منه. لقد حاولت السبل كافة».

تنهمر الدموع من عيني صاحب الكلب، وبينما يكفكفها أرتدي ثيابي وأشد أربطة حذائي وأتوجه إلى الباب، فيفسح لي الطريق وهو يمسح الدمع بكمه. ثم عندما أتجاوز العتبة أركض هارباً ويركض خلفي إلى أن تنبثق تلك الزاوية، يطلق النار ثم يهوي بالحجر مرتين وأطلق عوائي الحاد والخافت، ثم ينصرف الأولاد ذوو العيون الزجاجية ويعلق هو بندقيته على كتفه وينصرف، وأسمع وقع خطواته خلفي. وهكذا حتى يلقي الصباح خيوطه الأولى عبر النافذة على وجهي، فأستيقظ وأراه في الباب وعلى كتفه بندقيته التي أعرف أنها محشوة...

1989

الثالثة ليلاً

أفقت من نومي مذعوراً، يبلل جسدي عرق بارد، وقلبي يخفق بشدة. شيء ما كان قد حدث. لا أدري إن كان ذلك قد حدث في الحلم وظننته في الواقع أم كان في الواقع وظننته قد حدث في الحلم، الذي كنت متأكداً منه فقط هو أن شيئاً ما قد حدث، على الرغم من أن كل شيء حولي كان ينم عن أن شيئاً لم يحدث البتة؛ فالهدوء يخيم على الشارع، والصمت يغلف هذا الليل الحالك. حتى الهواء كان كما لو أنه تجمد في مكانه. ولهذا، فقد اعتقدت أن ذلك لم يكن سوى كابوس عابر من سلسلة الكوابيس التي أخذت تقض مضجعي في الفترة الأخيرة. أشعلت الولاعة ونظرت إلى ساعة الحائط فكانت عقاربها الفوسفورية تشير إلى الثالثة تماماً بعد منتصف الليل، وهذا يعني أنه في إمكاني أن أنام أربع ساعات أخرى.

ألقيت برأسي على الوسادة من جديد وحاولت أن أغمض جفني، ولكن من دون جدوى. فقد أعلنت عيناي إضراباً عن النوم وكأنني قد نمت مئة عام، وبقيتا تحدقان في السقف الذي ابتلعته العتمة، فشكّل فراغاً لا نهائياً يشبه فراغ هذا الكون. تَصَوُّرُ الكون والبحث في مخيلتي عن حدود مفترضة له كان أمراً يبعث الرعب في نفسي، فقد كان هذا يجعلني أشعر بصغر حجمي إلى حد يصل إلى درجة الانعدام. من المستحيل أن يكون لهذا الكون بداية، كما من المستحيل أن يكون له نهاية، وإذا وجدت مثل هذه البداية فإنها ستكون عند نهاية كون آخر، وكذلك النهاية سيكون بعدها بداية كون آخر. كانت الأرض عندما أتخيل هذا الفراغ الهائل تتحول إلى حصاة بل حبة غبار في زوبعة كونية، أما أنا فأصبح أصغر من حشرة وربما من فيروس بل كائن دقيق لا يمكن رؤيته بالمجهر الإلكتروني. في كل مرة تسبح فيها أفكاري في هذا الظلام اللانهائي كنت أشعر أنني أوشك على أن أفقد عقلي، وهذا ما أشعر به الآن بالتحديد. ولذلك فقد انقلبت على جانبي الأيمن هرباً من هذا الشعور المخيف لعل الحائط يشكِّل حداً يكسر هذا الفراغ، ولكن الحائط كان قريباً لدرجة أنني كنت أشعر بأنفاسي تصطدم به وترتدُّ إليَّ قبل أن تبرد، ما جعلني أشعر وكأنني في قبر.

مثلما كان يرعبني الفراغ الكوني اللامتناهي كان يرعبني الضيق

اللامعقول للزنازين والحجرات الصغيرة المقفلة والخالية من النوافذ، كنت أشعر في هذه الحالات أن الجدران تزحف نحوي من جميع الجهات لتطبق عليَّ وتجعلني عاجزاً عن الحركة تماماً، ولذلك فضَّلت النهوض على كوابيس اليقظة هذه.

أزحت الستائر الكتيمة التي كانت تمنع أي خيط من الضوء أن يتسلل إلى غرفتي، فقد كنت أعجز عن النوم من دون أن يخيم ظلام مطبق على الغرفة، ثم ألقيت بنظرة إلى الشارع، فوجدته يكشر عن أرصفة خالية من المارة وإسفلت أسود خشن تشكلت في وسطه وعلى أطرافه حفر صغيرة كان يصدر عنها بريق خافت تعكسه أسطح بقع مائية تشكلت بعد أن تقيأت الكهاريز ما في جوفها قبل أيام ثم استعادته تاركة بعضه في تلك الحفر. وحول الحدود العليا للبناء المقابل، تشكلت هالة رصاصية اللون تدل على اقتراب الفجر. وفي قرص السماء كان القمر فضياً شاحباً قد فقد حمرته وبدا كأنه قطعة معدنية في ديكور لمسرحية تعرضها فرقة فقيرة لم تقوَ على بذل أكثر من لوح من التوتياء للدلالة على القمر.

أشعلت النور ونظرت إلى ساعتي فوجدت عقاربها تشير إلى الثالثة ليلاً، ونظرت فوراً إلى ساعة الحائط ووجدتها لا تزال تشير إلى الثالثة أيضاً، فقررت أن ساعة الحائط متوقفة، وأنها لم تكن الثالثة حين استيقظت. وقررت أن أشغل نفسي بأمر ما ريثما تحين السابعة صباحاً حيث أتوجه إلى العمل.

دخلت إلى المطبخ وأشعلت النار ثم وضعت فوقها إبريق الشاي، ثم دخلت إلى الحمام وغسلت وجهي طارداً عن عيني آخر ما تبقى من النعاس، وعدت إلى الغرفة لكي أتصفح جرائد أمسِ التي اشتريتها ولم أقرأها بعد أن غلبني النعاس وجعلني أنام من دون أن أخلع حذائي.

كان يتهيأ لي أن الأخبار نفسها تتكرر كل يوم في الصحف كافة، ولذلك فأنا لم أكن أطالعها لكي أشبع جوعاً إخبارياً في نفسي، فقد اعتدت على غياب الحدث من المسرحية المملة التي نعيشها. لقد كانت مسرحية صامتة نام فيها المخرج والمؤلف والممثلون والجمهور معاً. أما الصحف التي كانت المطابع ترمي بها كما لو أنها تتخلص من فضلات أمعائها، فقد كنت أشتريها بسبب هواية غريبة تجذرت لديّ منذ زمن بعيد، حيث كنت مدمناً على جمع الأخطاء المطبعية. وعلى الرغم من أن صحفنا مليئة بمثل هذه الأخطاء، فقد كنت عندما أعثر على خطأ مطبعي أشعر كما لو أنني عثرت على قطعة نقدية. كان عندي على السقيفة أكثر من أربعين مصنفاً مليئاً بالأخطاء المطبعية.

عندما أتصفح جريدة أبدأ عادة بالعناوين، لأن الخطأ المطبعي في العنوان كانت له قيمة مضاعفة، حيث ينقص أحياناً حرف ما من اسم شخصية مشهورة أو يزيد حرف أو يتبدل حرف، فيتبدل معنى الاسم المهيب بشكل كلي. وكم من بطل حوله خطأ مطبعي إلى

بصل! وكم من شعار سقطت شينه فأصبح عاراً، وغير ذلك الكثير مما يثير في نفسي الضحك. بعض الأخطاء تغير محتوى الخبر كلياً، كذلك الخبر الذي عثرت عليه في جريدة الأهرام المصرية مرة عن دولتين اتفقتا على تبادل العلاقات على مستوى «الشعراء». جميل لو تقوم الدول بتبادل العلاقات على مستوى الشعراء، بدلاً من هذه المخلوقات المقددة التي يدعى أفرادها بالسفراء.

سكبت كوباً من الشاي ثم بحثت عن لقمة من الخبز لكي أقضمها قبل أن أشعل لفافتي الأولى، فلم أجد. تذكرت قطعة خبز بحجم الكف تركتها بعد وجبة على الشرفة منذ أيام، وكانت الشمس قد حولتها إلى ما يشبه قطعة من الزجاج. فتناولتها وألقيتها في فمي وأخذت أمضغها مرتشفاً الشاي لكي تلين، وكنت أسمع صوت تكسرها تحت أسناني، ولكنني مع ذلك شعرت أنها أحدثت خدوشاً داخل فمي.

أشعلت لفافتي ونظرت إلى الساعة فكانت عقاربها لا تزال تشير إلى الثالثة ليلاً. ظننت أنها هي الأخرى معطلة، فضربتها بحافة الطاولة عدة مرات كما كنت أفعل دائماً، ولكن عقاربها لم تتحرك، تركتها هناك وبحثت عن ساعة المنبه التي كنت أخفيها في الخزانة تحت كومة من الثياب المرمية في داخلها هرباً من صوت عقاربها المتوحشة، فوجدت تلك العقارب تشير إلى الثالثة أيضاً، ولم أجد تفسيراً سوى أن جميع ساعاتي معطلة، وعدت إلى

تصفح بقية الجرائد بحثاً عن الأخطاء المطبعية، ففي نهاية المطاف سأعرف كم الساعة عندما يبعث الفجر خيوطه الأولى ويبدأ الجيران بالتسابق نحو المرحاض للتخلص مما احتقنته أجسامهم من السوائل ليلاً.

أشعلت لفافة ثانية ونظرت إلى ساعة يدي التي كانت مرمية على حافة الطاولة، فوجدتها لا تزال معطلة وعقاربها لا تزال مسمرة على الساعة الثالثة. وضعتها في جيب الجاكيت لكي آخذها إلى مصلح الساعات في طريقي إلى العمل، ثم نظرت إلى ساعة المنبه فوجدت عقاربها هي الأخرى لا تزال تشير إلى الثالثة، وقمت بتوجيه عدة ضربات بالمسطرة على يافوخها لعلها تعمل كما أفعل دائماً، ولكن عقاربها لم تتحرك. أخذت أبحث عن كتاب أقتل به الوقت ريثما تحين السابعة.

كانت مكتبتي مكونة من ثلاثة رفوف خشبية معلقة على الحائط، وكانت الكتب الموجودة فيها متنوعة لدرجة يصعب معها التكهن بميول صاحبها. الجزء الأول لرأس المال؛ أول كتاب تقع عليه عين الناظر إلى تلك الرفوف، وذلك ناتج عن سماكته ورونقه الأنيق الذي يدل على أن يداً لم تمسّه بعد. لقد حاولت قراءته عشرات المرات، ولكنني في كل مرة كنت أعيده إلى المكتبة بعد أن يصيبني الضجر في الصفحة الثالثة، ولهذا السبب فإنني لم أشترِ الجزء الثاني ولا أعرف عدد الأجزاء إن كان أكثر من ذلك. وفي

هذه المرة أيضاً لم أغامر بسحبه من فوق الرف، فأنا أبحث عن كتاب يقضي على الضجر الذي يسكنني لا عن كتاب يعمّق هذا الضجر.

لفتت انتباهي مجلة مدسوسة تحت كومة من الكتب وقد تمزقت أطراف صفحاتها بشكل يدل على أنها تعرضت للكثير من القراءة، فسحبتها من هناك بدافع الفضول وإذا بها مجلة تحتوي على صور جنسية.

وقعت هذه المجلة في يدي عندما كنت في الصف العاشر، وقد أحضرها للتداول طالب يدعى وائل كان والده يعمل سائقاً على خط بيروت ويحضر بعض المهربات ليتاجر بها، وكان وائل يسرق بعض هذه الأشياء من حقيبة والده، ومن ضمنها كانت صور وكتب وأشرطة تسجيل، حيث أن أشرطة الفيديو لم تكن رائجة بعد في ذلك الوقت، ومعظم الناس لم يكن يعرف أجهزة الفيديو. كان طلاب الصف يتداولون هذه الأشياء تباعاً ثم يعيدونها إلى وائل. وعندما فُصل وائل من المدرسة لسبب لا أذكره، ورث كل طالب ما بقي من أشياء وائل في حوزته، وكانت هذه المجلة من نصيبي، في كل مرة كانت تقع يدي عليها كنت أقرر إحراقها أو تمزيقها خشية أن يعثر عليها أحد في مكتبتي فأصاب بالإحراج، ولكنني لم أفعل ذلك، ولهذا فقد قررت انتهاز الفرصة وتنفيذ ما كنت قد نويت عليه، ثم مزقتها ورميتها في القمامة.

تنقلت بين الكتب باحثاً عن عنوان يشدني، فلم أجد. الشيخ والبحر؛ كنت قد قرأته عدة مرات، وكتب الشعر الحديث لم تكن تغريني، فعلى الرغم من وجود بعض العبارات الموفقة فيها، إلا أنها كانت عاجزة عن جعل الذاكرة تتمسك بإحداها. هذا إذا كانت مثل هذه العبارات موجودة فيها أصلاً، فمعظم شعر هذه الأيام مكتوب بلغة تشبه لغة نشرات الأخبار وبكلام عادي لا يختلف عما يدور بين البشر من أحاديث، أما من يجتهد فيدخلك في دوامة أو متاهة محاولاً الهروب بك من اللغة إلى ما يعتقد أنها الفلسفة، ظناً منه أن الفلسفة تتحمل كل الألغاز. وأنا الآن لست في حالة تسمح لي بحل أي من هذه الألغاز المستعصية، ولذلك تركت الشعر جانباً وأخذت أبحث عن قصة، أريد قصة تجري فيها أحداث تجعلني أتخلص من بعض ضجري، حتى لو كانت قصة بوليسية.

لم تكن مكتبتي بلا حدود، فهي لا تحتوي على أكثر من ثلاثين كتاباً قرأت معظمها، أما ما لم أقرأه منها فلأنه غير قابل للقراءة بالنسبة إليَّ، فإما هي تحتوي موضوعات جافة أو موضوعات فارغة، ولذلك لم أعثر بينها على كتاب أقرأه. وكدت أشعر بالإحباط لو أنني لم أتعثر بين كتبي بمذكرات «لي تجي سوي» الطبيب الشخصي لـ«ماو تسي تونغ».

أحب قراءة مثل هذه الكتب، ففيها يمكنك أن تتطلع على تفاصيل مخجلة في حياة شخصيات عظيمة بلغت أحياناً حد

القداسة والأسطورة، خاصة إذا كان مؤلفها منزعجاً من رب عمله السابق، وهذا ما يتوفر في هذا الكتاب، حيث كتب الطبيب المذكور على الغلاف الأخير أنه فقد الجنسية وفقد وطنه وأنه دفع حياته ثمناً لهذا الكتاب.

لكثرة الأحداث المثيرة بين دفتي الكتاب فقد قرأت صفحاته التي تجاوزت الثلاثمئة صفحة من دون أن أشعر. دخنت علبة سجائر وفتحت أخرى، وكأس الشاي الذي بقي نصفه أصبح بارداً. لم أفهم سبب تذمر الطبيب في بداية الكتاب من اضطهاد القيادة الصينية له، حيث أن القيادة الصينية لم تمسه بسوء بعد وفاة «ماو»، وعندما طلب تأشيرة خروج لزيارة ولديه اللذين يدرسان في الولايات المتحدة تمت تلبية طلبه وسافر إلى هناك ثم لم يعد من هناك برغبته الشخصية، ويبدو أن سحب الجنسية منه كما يذكر كان بسبب نشر هذا الكتاب، وهنا لا بد من القول إنني شعرت من خلال كلام الطبيب بأنه قديس، فقد صور نفسه على هذا الشكل، ولكنني أتساءل، كيف تسنى له اجتياز جميع هذه الحواجز لو لم يكن في غاية الدهاء؟ وهل قال ما له وما عليه في هذا الكتاب، أم أنه فقط أراد تبييض وجهه أمام الجهات الأمريكية التي نلاحظ تملقه لها بين دفتي الكتاب؟ أعتقد أن الطبيب ذكر من الحقائق تلك التي تخدمه وتجعل أمريكا تشعر بالرضا، وترك تلك التي ليست في صالحه. على كل الأحوال، ما دخلي أنا بالموضوع؟

«ماو تسي تونغ» ليس ابن عمي، كما أن الطبيب ليس ابن خالتي، ولا فرق عندي إن كان ما يكتبه الطبيب حقيقة أم كلاماً مزيفاً. فخّار يكسِّر بعضه.

نظرت إلى جميع الساعات تباعاً فكانت كلها ما تزال تشير إلى الثالثة، اتصلت بالساعة الناطقة، ولكن حنجرتها هي الأخرى كانت قد غصت بالزمن على ما يبدو، فقد أخذت تحزق وتردد:

- عند الإشارة تكون الساعة الثالثة بعد الزوال.. عند الإشارة تكون الساعة الثالثة بعد الزوال.. عند الإشارة تكون الساعة الثالثة بعد الزوال...

ساعة الحكومة أيضاً معطلة على ما يبدو، قلت ذلك في نفسي ورفعت سماعة الهاتف من جديد لكي أتصل بصديقي ياسر لعله يعلمني بالوقت الحقيقي، وعندما رفع ياسر السماعة وسألته عن الساعة صرخ غاضباً:

- يا أخي عندنا أطفال نيام، أيعقل أن توقظني في الساعة الثالثة ليلاً لكي تسألني مثل هذا السؤال السخيف؟

ثم وضع السماعة بعنف من دون أن يسمع ما كنت أريد قوله له لاحقاً.

توجهت إلى النافذة وألقيت نظرة إلى الشارع فوجدت كل شيء لا يزال مكانه، القمر المعدني الشاحب تجمد في قبة السماء،

والهالة الرصاصية المحيطة بحافة البناء المقابل لم يتغير لونها، والبقع المائية المنتشرة في حفر الإسفلت لا تزال تصدر بريقها الخافت، ولا أثر لإنسان.

ربما تكون الساعة قد توقفت، ولكنني بالتأكيد قد استهلكت من عمري زمنا لا يقل عن ست أو سبع ساعات منذ أن استيقظت حتى الآن، إن الساعة الآن يجب أن تكون السابعة صباحاً لا الثالثة بعد الزوال كما يدعون. كل الأشياء يمكن أن أخطئ في تحديدها إلا الساعة السابعة صباحاً، فأنا في مثل هذا الوقت أتناول فطوري في العمل، وعندما تبلغ السابعة تبدأ معدتي بالتقلص تلقائياً لتذكيري بتناول الفطور. منذ خمسة وعشرين عاماً لم تنسَ معدتي ذلك الأمر ولو ليوم واحد. حتى في أيام العطل حين أستغل الفرصة لكي أنام إلى وقت متأخر، فإن معدتي توقظني في السابعة حيث أتناول فطوري وأعود للنوم. والآن، وبما أن معدتي تتقلص بهذا الشكل، فهذا يعني أن الساعة يجب أن تكون السابعة، ولكن أحداً لا يعرف ذلك غير معدتي التي ستبدأ باجترار جدرانها إذا ما بلغت الثامنة من دون أن ألقي لها بشيء تفترسه، وهذا ما سوف يحدث عملياً؛ حيث أن ثلاجتي فارغة تماماً، وجميع مدخراتي من الأطعمة قد نفدت منذ أيام، والوقت مشلول تماماً ولا يتحرك باتجاه الصباح حيث تفتح الدكاكين أبوابها ويمكنني أن أقدم رشوة لمعدتي الفاجرة.

في مرطبان المكدوس كان هناك مكدوسة واحدة قد تعفنت منذ زمن بعيد، فقمت يوم أمس بإلقائها في سلة القمامة. لم أكن أدري أن هذا سيحصل. يمكن للشخص أن يحسب حساباً لكسوف الشمس، أو لعاصفة عاتية، أو لزلزال مدمر، وحتى لخراب الكون، ولكن لا يمكن له أن يحسب حساباً لتجمد الزمن. كل شيء يمكن أن يتجمد إلا الوقت، حتى إذا خرب الكون فإن الزمن لا يمكن أن يتوقف. ولكن على ما يبدو فإن كل شيء يمكن أن يتجمد، وإلا فما معنى تشبث عقارب الساعات جميعاً بالثالثة؟ وما سر وقوف القمر والنجوم؟ وما سر هذا الذي يحدث؟ لا أعرف. ولكن الذي أعرفه تماماً هو أنني ارتكبت خطأً عندما ألقيت بالمكدوسة في سلة القمامة يوم أمس. يوم أمس أيضاً أُعدم شاوشيسكو، يقال إنهم أسرعوا في إعدامه لكيلا يفضح الكثيرين منهم، ويقال إن المافيا وراء الموضوع. كل شيء في يد المافيا في هذا العالم، مافيا الناتو، مافيا وارسو، مافيا الأمم المتحدة، مافيا عدم الانحياز، مافيا الوحدة الأفريقية، مافيا نمور آسيا، مافيا الكومنولث، مافيا الاتحاد الأوروبي، مافيا الدول المستقلة، وأقوى مافيا على الإطلاق مافيا مجلس الأمن. لا يعيش إنسان فوق هذا الكوكب من دون إرادة المافيا، وكلما اشتد ساعدها كلما كان دمارها أعم وأشمل. المافيا الإيطالية والمافيا الروسية ملائكة إذا قورنوا بمافيا مجلس الأمن. هل كان

تشاوشيسكو يعرف المكدوس يا ترى؟ في رومانيا يصنعون شيئاً يشبه المكدوس، ولكنه في الحقيقة ليس سوى باذنجان مخلل، ولا أعتقد أن شاوشيسكو كان يتناوله. المخللات تدخل ضمن قائمة المأكولات الشعبية، والملوك والأمراء لا يتناولونها. لماذا؟ لأنها مؤذية بالصحة، تتشكل بعد حدوث عملية تخلل أو تعفن، مثل الشنكليش مثلاً، وبالتالي فإنها عبارة عن سم غير قاتل على المدى القريب، تتكفل فقط بتخريب الأمعاء، وأمعاء الملك ليست ملكاً له؛ إنها أمعاء الدولة، ولا يجوز له أن يتصرف بها كما يشاء؛ فخرابها يؤثر في الدولة بشكل مباشر. يجب عليه أن يتحمل الحرمان حفاظاً عليها، أما الشعب فله حرية التصرف في أمعائه؛ فليأكل ما يشاء. لو كان الأمر في يدي لمنعت المكدوس والمخلل وكل أنواع الأطعمة المتشكلة بعمليات التعفن والتخلل، ولكن هذا كلام فارغ، فلا بد من أن ذلك سيكون مبرراً كافياً لكي تغضب مني مافيا العفو الدولية ومافيا حقوق الإنسان، وساعتها ستتدخل مافيا مجلس الأمن وتحرق الأخضر واليابس دفاعاً عن أمعاء الشعب. الأمر ليس بهذه البساطة التي يتصورها شخص ساذج مثلي.

نظرت عبر النافذة من جديد، فرأيت القمر المجتث من لوح التوتياء لا يزال متجمداً مكانه، والهالة الرصاصية حول حافة البناء المقابل باللون السابق نفسه، والبقع المائية لا تزال تصدر البريق

نفسه. أصبت باليأس تماماً، لم يعد حلمي أن تشرق الشمس، فأنا الآن مستعد للقبول بأن يتقدم الزمن دقيقة واحدة، هذه الدقيقة تكفي لبث الأمل في نفسي.

رفعت سماعة الهاتف من جديد لعل الساعة الناطقة كانت قد غيرت رأيها خلال الساعات المنصرمة، ولكن عبثاً فعلت؛ فقد كانت الساعة لا تزال تغص بالزمن وتحزق مرددة:

«عند الإشارة تكون الساعة الثالثة بعد الزوال... عند الإشارة تكون الساعة الثالثة بعد الزوال... عند الإشارة تكون الساعة الثالثة بعد الزوال...».

وضعت السماعة مستاءً وجلست أفكر في طريقة تمكِّنني من أن أفعل شيئاً، ولكن ما عساي أن أفعل؟ ليس في قدرتي تحريك الزمن، فأنا مخلوق عاجز لم أتمكن من تحريك نفسي على السلم الوظيفي درجة واحدة خلال عشرين عاماً، راتبي لم أستطع أن أحركه ليرة واحدة إلى الأمام منذ خمسة أعوام، فكيف لي أن أحرك الزمن؟ لم يكن جلوسي للتفكير في الخروج من هذا المأزق سوى محاولة يائسة لقتل الوقت. كنت لا أزال أفكر في الطريقة نفسها التي كنت أفكر فيها عندما كان الزمن على قيد الحياة، لم يخطر في بالي أنه لا يمكن قتل الميت، الزمن الآن جثة هامدة، فكيف أقتله؟

سمعت صرير عجلات عربة الزبالة في الشارع، فبعث ذلك

في نفسي شيئاً من الحيوية، فقد كان هناك شخص يتحرك في هذا السكون القاتل. توجهت مسرعاً نحو النافذة لكي أتأكد إن كان ذلك حقيقة أم مجرد هلوسة، فرأيت الزبال يجر أمامه العربة. ألقيت عليه التحية وسألته عن الساعة منتظراً أن يقول غير ما أعرفه، فأجاب بحروف ناعسة:

- الثالثة.

- ومتى تصبح الرابعة، أو الخامسة؟

سألته، فظن أنني أمازحه، وأجاب:

- عندما تصبح الرابعة أو الخامسة.

فأكدت على الأمر بشكل جدي:

- أنا لا أمزح. ألم تلاحظ أن هذه الليلة طويلة جداً؟

- كل الليالي طويلة. الوقت في الليل يمر ثقيلاً، ولهذا فإن الناس ينامون في الليل، للقضاء على الوقت.

- أنا لا أقصد أن الوقت يمر ببطء. الوقت لا يتحرك أبداً! الساعة لا تزال الثالثة منذ زمن بعيد، إنها الآن الثالثة بينما هي في حقيقة الأمر ليست الثالثة. انظر إلى القمر؛ ما زال واقفاً في مكانه منذ الساعة الثالثة، إنه لا يتحرك...

ظن الزبال أنني أسخر منه، فقاطعني قائلاً:

- إذا كنت تظنني مغفلاً تريد أن تتسلى به بعد منتصف الليل

فأنت مخطئ. وليكن في علمك أنني طالب جامعي، وأعمل في هذه المهنة لكي أؤمن مصاريف الدراسة.

ثم دفع عربته وتابع سيره من دون أن يسمع ما قلته مفسراً له الأمر بعد ذلك. شعرت بجوع شديد، وأخذت يداي ترتجفان بسبب ذلك، مثل هذه الأعراض تحدث معي عندما تصبح الساعة الثالثة بعد الظهر حيث يكون قد مر ساعة على موعد الغداء ولم أتناول طعامي. إذا عاد الزمن إلى الحياة لن ألقي في القمامة شيئاً، لن أعطي زياد الجزار أي خبز يابس، بل سأحتفظ بكل شيء تحسباً لمثل هذه الساعة. من الغباء أن يظن الشخص أنه فوق مستوى العفن فيقوم بالتبرع به للبقر أو يرميه في القمامة، فالعفن أيضاً أحد أنواع الغذاء. بعض الصوفيين كانوا لا يتناولون غير الخبز اليابس أو المتعفن. لا أظن أنني أقل شأناً منهم. ما الذي دفعني إلى البطر وإلقاء المكدوسة في القمامة؟ كان في إمكاني أن أنزع عنها العفن وأتناولها، ليس من الضروري أن أتناولها بعفنها. والآن أيضاً يمكنني أن أنتزعها من سلة القمامة. لا أعتقد أن هناك أشياء قذرة إلى هذه الدرجة، بعض قشور البطيخ لا تؤثر، بل على العكس، فقشور البطيخ أيضاً يمكن تناولها. ليس من الضروري أكلها كما هي، يمكن أكل الطبقة البيضاء منها. ماجلان وبحارته كانوا يتناولون الجلود التي لفت بها الصواري عندما نفد الطعام لديهم. لا أعتقد أن تلك الجلود كانت صالحة للأكل أكثر من

قشور البطيخ. ولماذا أذهب بعيداً؟ لا حاجة بي أبداً إلى تجربة الصوفيين أو ماجلان، فعندما ألقوا بنا في الصحراء في أثناء الخدمة العسكرية لكي نتلاءم مع الطبيعة لم أكن أعتقد أبداً أنني سأقوم بأكل أفعى. صحيح أنني تقيأت كل ما في جوفي بعد أن أكلتها، ولكنني لم أرمِ الأفعى الأخرى التي كانت في جعبتي. وعندما تناولتها في الوجبة اللاحقة لم أتقيأ، بل على العكس؛ فقد اكتشفت طعمها اللذيذ. يقول المثل إن الجوع كافر، ويقول الشاعر إن الجوع أبو الكفار، ويقول مثل أجنبي إن الجوع ليس خالتك. فعلاً. فالجوع عدو النفس؛ يقهرها ويمرغ أنفها في الوحل. فكم من امرأة باعت نفسها برغيف خبز؟ وكم من رجل تجاهل الذل مقابل لقمة؟ وكم من أمير بحث في الروث عن حبة شعير لم تهضمها الماشية؟ إنه غريزة ليست كباقي الغرائز، يمكنك أن تقاوم غريزة الجنس وتصبح راهباً، لا أدري إن كان ذلك صحيحاً، ولكنهم يقولون إن المهاتما غاندي قام بإخصاء نفسه لكيلا تؤثر فيه الغريزة الجنسية. العظماء مبدعون حقاً، لو أعرف لماذا قطع فان كوخ أذنه! غريزة القطيع أيضاً يمكنك أن تقاومها فتعيش في صومعة على قمة سفح بعيد، ولكنك غير قادر على مقاومة غريزة الجوع؛ إنها الغريزة التي تضمن بقاءك الشخصي. حتى أبو العلاء المعري، رهين المحبسين، الذي جمع بين الرهبنة والاعتزال، لم يكن قادراً على تحدي هذه الغريزة. صحيح أنه روضها فاكتفى

بالعدس والتين، ولكنه لم يكن قادراً على الاستغناء عنها، علماً أنني، والحق يقال، لا أصدق هذا الكلام، ولا بد من أن أبي العلاء كان يحتفظ لنفسه بطعام ما يتناوله عندما يختلي بنفسه. يبدو أنني أبحث لنفسي عن مبرر لسحب قشور البطيخ والمكدوسة من القمامة، ولكن لماذا أطلق عليها هذا الاسم؟ صحيح أنها في سلة القمامة ولكنها ليست قمامة؛ إنها مهملات. نعم، مهملات، وهذا هو الاسم الأصح لتلك السلة: سلة المهملات. إنها تحتوي على أشياء مهملة ويمكن للإنسان أن يعود إليها عند الحاجة.

سحبت المهملات من السلة وغسلتها بالماء جيداً ثم استخلصت الطبقة البيضاء من قشور البطيخ وهممت بتناولها، ولكن رائحة الحموضة التي كانت تفوح منها جعلتني أرمي بها من جديد في سلة القمامة. من الذي قال إنها مهملات؟ إنها قمامة بكل معنى الكلمة. يبدو أن بحارة ماجلان تناولوا تلك الجلود عندما لم تبقَ أمامهم خيارات أخرى، أنا أصلاً لم أصدق هذه الشائعة، فقد كان في وسعهم اصطياد السمك عندما نفد مخزونهم من الطعام. وعلى كلٍّ، فأنا أمامي خيارات كثيرة، وفي أسوأ الأحوال يمكنني أن أدق باب أبي ياسين فيفتح لي الدكان ويبيعني شيئاً يمكنني من سد جوعي. إن منزله خلف الدكان مباشرة.

فتح أبو ياسين الباب ملهوفاً وهو لا يزال في ثيابه الداخلية، وسأل بقلق واضح:

- خير يا بني؟ هل حصل مكروه؟

- لا... لا. لا سمح الله. كل ما في الأمر أنني أريد شراء بعض الحاجيات، أريد أن آكل.

قلت مهدئاً روعه، فقال غاضباً:

- لعنة الله على العرق وعلى الذي اخترع العرق! على الدولة أن تمنع بيعه...

نظر إلى ساعته وأردف:

- أتوقظني في الساعة الثالثة ليلاً من أجل هذا؟

ثم دخل وصفق الباب في وجهي من دون أن يستمع إلى وجهة نظري.

يممت وجهي قاصداً الصالحية حيث مطعم «بوز الجدي» الذي يعمل ليل نهار. أنا لا أحب الفول، ولكنه يبقى أفضل من قشور البطيخ المتحمضة والمكدوسة المتعفنة. يجب أن تمنح الدولة وساماً رفيعاً لبوز الجدي هذا، فلولاه لتلوى الكثيرون من الجوع ليلاً؛ إنه المخرج الوحيد لمثل هذه الحالة، ثابت لا يهمه إن كان الزمن راكداً أو متحركاً.

في مطعم بوز الجدي وجدت عدداً من الناس يتناولون الفول، فأحسست بالاطمئنان قليلاً؛ فبما أنهم ليسوا نياماً فلا بد من أنهم يلاحظون أن الزمن قد توقف. جلست إلى الطاولة قبالة أحدهم وسألته:

- كم الساعة؟

- الثالثة.

قال الرجل بعد أن نظر إلى ساعته وهو يمضغ لقمة في فمه، فأردفت:

- أهي الثالثة منذ زمن بعيد، أم أنها الآن قد بلغت الثالثة؟

لم يفهم الرجل سؤالي، فوضحت له قصدي:

- أنا استيقظت في الساعة الثالثة ليلاً، ومر وقت طويل منذ أن استيقظت ولكنها بقيت الثالثة. هي الآن ليست الثالثة، ولكننا نظنها كذلك. إنها الآن نحو الرابعة بعد الظهر، غداً وليس اليوم، وربما تكون بعد غد. من الصعب حساب الوقت عندما يتوقف.

النظرات الغريبة التي أخذ الحضور يوجهونها إليَّ وبعض الابتسامات التي ارتسمت على الشفاه جعلتني أوضِّح:

- لا... لا. أنا لست مجنوناً. إنني في كامل قواي العقلية. كل ما في الأمر أن شيئاً قد حدث للزمن، يبدو أن الأرض قد توقفت عن الدوران، أو أن الشمس هي التي فعلت ذلك. الساعة الآن ليست الثالثة، نحن نعتقد أنها كذلك ولكننا على خطأ، فهي قد تجاوزت الثالثة منذ زمن بعيد، ولكننا نعتقد أنها لا تزال الثالثة. توقف قلب الزمن عن الخفقان.

احتدم النقاش لدرجة فقدت فيها أعصابي وتم طردي من

المكان بطريقة أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها تفتقد إلى اللباقة. ثم تكرر المشهد في أماكن أخرى ومع أشخاص آخرين، فلا أحد يريد أن يصدق أنها ليست الثالثة ليلاً.

ليس في وسعي أن أقول في أي ساعة عدت إلى البيت، فقد كانت عقارب جميع الساعات التي بحوزتي تشير إلى الثالثة ليلاً، والساعة الناطقة أيضاً كانت لا تزال تحزق وتؤكد أن الساعة عند الإشارة هي الثالثة بعد الزوال تماماً. استلقيت في السرير وحاولت أن أغفو، فلعلِّي إن نجحت في النوم أستيقظ في الصباح فلا يكون كل ما يحدث الآن سوى أضغاث حلم مزعج. ولكن النوم أبى أن يساعدني في محنتي هذه. لا أدري كم من الوقت قضيتُ وأنا أتقلب في الفراش كما لو أنني أتقلب على بلاط جهنم، فالساعة لم تعد مفهوماً يمكن تداوله للإشارة إلى الزمن. لو كانت الساعة قد توقفت في النهار لما كان ذلك ليثير حنقي، فالنهار حياة، أما الليل فهو مملكة الموت، كل شيء فيه معطل. النهار هو زمن الفعل وزمن الحركة، ولو أن الساعة توقفت خلاله لكان البشر قد حصلوا على الخلود. أما توقف الزمن ليلاً فهو أشبه ما يكون بسكتة كونية، نعم سكتة، وإلا فماذا يعني توقف الزمن غير موته؟ مات الزمن، فبماذا سنؤرخ الآن؟ لم يعد لدينا ساعات ولا أيام ولا أعوام، لا صيف ولا شتاء، لا نهار ولا ليل، كل هذه الأشياء أصبحت مفاهيم من الماضي. حتى الماضي لم يعد له معنى واضح، فبموت الوقت

توحَّد الماضي والحاضر والمستقبل معاً، صاروا وقتاً واحداً ليس له وجود. أمس واليوم وغداً ماتوا، إنه كلام يشبه الهلوسة حقاً، كلام غير معقول أبداً، ولكنه يحدث.

تفلسفت كثيراً، ولكن ما جدوى الفلسفة؟ كل إنسان فانٍ.

نظرت من النافذة مجدداً فوجدت القمر عند النقطة التي تركته فيها، والهالة الرصاصية كما هي، وبقع الماء الآسن لا تزال تصدر بريقها الخافت. لم أعد أتحمل هذا الكابوس الذي لا ينتهي، لم أعد أتحمل هذا الخنوع الذي يبديه البشر للساعة المتوقفة. عليَّ فعل شيء، عليَّ أن أنبِّه البشر إلى هذا الأمر. ليست غايتي من ذلك قول الحقيقة، أنا لا أسعى إليها أصلاً، أنا فقط أعرف أنني أستهلك عمري ولا أريد أن أعيش ما تبقى لي تحت ظل الساعة الثالثة.

عندما خرجت إلى الشارع كنت عاقد العزم على الصراخ بأعلى صوتي منبِّهاً البشر إلى أن الساعة الآن ليست الثالثة، إلى أنها بعد الثالثة، كنت أريد أن أحرِّضهم على فعل شيء، ولكنني في اللحظة الأخيرة غيرت رأيي، ليس لأن البعض سيعتقد أنني في حالة من السكر، وليس لأن البعض الآخر سيحسبني مجنوناً، ولكن لكيلا أوقظ اللصوص النائمين، فإذا انتبهوا إلى أن الظلام يعم الكون لا بد من أنهم سيستغلون الفرصة لينهبوا كل شيء. القانون فاعل في النور، أما في الظلام فإنه من دون أي فاعلية.

نعم. الصراخ ليس الطريقة المثلى لقول الحقيقة، فالحقيقة

تقال همساً. كما أنها لا تقال للعامة من البشر. يجب أن أنبّه أصحاب القرار في البداية إلى ذلك، فهم وإن كانوا عاجزين عن التحكم بالزمن، إلا أنهم قادرون على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمنع حدوث فوضى. ولذلك فقد توجهت إلى القصر، فساكنه هو الشخص الوحيد القادر على اتخاذ مثل هذه الإجراءات.

كان القصر محاطاً بسور عال فوقه أسلاك شائكة، وكان له بوابات كثيرة ولكنها جميعها موصدة ما عدا واحدة مفتوحة، وأمامها غرفة صغيرة للحراسة كانت تشغل الرصيف. تقدمت من الحارس الذي يجلس في الغرفة، فسألني عن غرضي قبل أن أتكلم. قلت له إنني أريد أن أقابل سيادته، فقال وفي عينيه نظرة تدل على أنه يحسبني مخبولاً:

- سيادته يستقبل المراجعين من الساعة العاشرة حتى الساعة الثانية عشرة صباح كل يوم، وليس في الساعة الثالثة ليلاً.

وكنت قد توقعت مثل هذا الجواب. فحاولت إقناع الحارس بأن الموضوع الذي جئت من أجله يعد موضوعاً في غاية الخطورة، وأنني لست مراجعاً عادياً. فلاحظت التغيُّر الذي طرأ على لهجته مباشرة، وفتح لي البوابة متردداً لكي أدخل، ولكنه في اللحظة الأخيرة سألني:

- وما هو هذا الموضوع؟

شعرت بارتباك كبير عندما وجَّه إليَّ سؤاله، وقد كنت متأكداً

من أنه لن يفهم قصدي لو أنني شرحت له الموضوع، وأنه سيتهمني بالجنون. فحاولت أن أضفي على الأمر الذي أخفيه طابع أسرار الدولة لعلّي أخيف الحارس فيسمح لي بالمرور من دون أن أشرح له شيئاً، فقلت:

- الموضوع خطير جداً، لا أستطيع البوح به لأحد سوى لسيادته، أسرار دولة.

وعندها فتح لي الحارس البوابة بشكل نهائي، فتنفست الصعداء لأن الأمر انتهى بهذه الطريقة، وخطوت إلى الداخل خطوتي الأولى واثقاً من نفسي، لكنني كنت متسرعاً على ما يبدو، فقد أمسك بي الحارس من ذراعي وقال بعد أن تصارعت الاحتمالات في رأسه:

- عفواً، لا أستطيع السماح لك بالدخول إذا لم أعرف الموضوع.

وعندما هددته بأنه سيتحمل كامل المسؤولية عن تصرفه هذا قال بشكل قاطع:

- لا أستطيع تحمل مسؤولية إزعاج سيادته في الساعة الثالثة ليلاً إذا لم أعرف الموضوع. سأوضع في السجن إن لم تكن القضية التي جئت بشأنها بتلك الأهمية التي تتحدث عنها.

كنت متأكداً من أنه سيطردني لو أنني صارحته بالحقيقة، ولهذا فقد حاولت ابتزازه من جديد:

- سيادته سيعلق مشنقتك لو عرف أنك أجبرتني على البوح بهذا السر لك!

وقد نفع هذا الابتزاز، فقد صمت الحارس للحظة ثم قال:

- انتظر.

واختفى خلف البوابة لدقيقة عاد بعدها مع رئيس الحرس الذي كانت ملامحه تدل على أنه في منتهى الصرامة، والذي سألني بلهجة جافة:

- ماذا تريد؟

- مقابلة سيادته.

- بأي شأن؟

- موضوع سري للغاية لا أستطيع البوح به لكل من هب ودب.

قلت ذلك بلهجة تنم عن رفعة موقعي من باب إرهابه، وكما يقول المثل: لكي أتغدى به قبل أن يتعشى بي. ولكن ذلك كان من دون جدوى، لأن الرجل على ما يبدو معتادٌ على مثل هذه المقابلات، فقد احتد وانفعل وقال:

- الآن، إما أن تقول لي ما الذي جاء بك، أو أدوسك بقدمي هاتين.

وأشار إلى الحذاء العسكري الذي كان يرتديه. فقررت الانسحاب قائلاً:

- لا شيء... لا شيء.

وهممت بالانصراف. ولكنه استوقفني آمراً إياي بالبوح عن الغرض الذي جئت من أجله، وقد قال ذلك بطريقة جعلتني أثق بأنني سأتلقى صفعة وأسمع كلمات نابية إن لم أبح، ما جعلني أرضخ لرغبته، فقلت:

- بصراحة، جئت أنبّه سيادته إلى الوقت.

- في بيته عشرات الساعات، وكلها ماركات عالمية، سيادته ليس في حاجة إليك لكي تنبهه إلى الوقت. قل، ما الشيء الحقيقي الذي دفعك للقدوم إلى هنا؟

وعبثاً حاولت التأكيد له على أن هذه غايتي، فقد ظن أن هناك دوافع أخرى خلف قدومي. وتابع استنطاقه لي بلهجة مفعمة بالإساءة، وعندما لم يحصل على جواب شاف استدعى مجموعة من الحراس وأمرهم بتعذيبي إلى أن أعترف. وعندما سأله أحدهم عن ماهية الشيء الذي يفترض أن أعترف به قال:

- يعترف بالحقيقة.

الحقيقة مرة أخرى، من ميزات الحقيقة أيضاً أن أحداً لا يصدق أنك تقولها، وإن صدقك فهذا يعني أنك ستدفع الثمن غالياً. وهذا ما يحصل معي في هذا القبو الآن، فالجلاد يكاد يسلخ جلدي بسوطه مطالباً إياي بالحقيقة، وهو في الوقت نفسه يرفض هذه الحقيقة. لا

يصدق أبداً أنها الحقيقة، يريد حقيقة أخرى غير هذه التي أقولها. على هذا الغبي أن يدرك أنني لو امتلكت حقيقة أخرى لقلتها بعد كل هذا التعذيب، فمهما كانت المضاعفات المترتبة على قولها وخيمة بالنسبة إليَّ فإنها ستبقى أرحم من سوطه الباحث عنوة عن الحقيقة، وإذا لم يفهم هذا الحيوان ذلك فلا بد من أنني سأموت تحت ضربات سوطه. أغمي عليَّ عدة مرات، وفي كل مرة كان الجلاد يدلق على رأسي دلو ماء بارد فيعيدني إلى الوعي ليطالبني بالحقيقة من جديد.

مضت أيام وربما أسابيع وربما أعوام والجلاد يلهب جسدي بسوطه مطالباً بالحقيقة، ولكن الساعة المعلقة على الجدار كانت لا تزال تصر على الثالثة ليلاً. تعب الجلاد وأخذت سياطه تقل حدة وتسارعاً، إلى أن شعر باليأس وأعلم رئيسه بالحقيقة:

- ليس سوى معتوه يا سيدي، يعتقد أن الوقت لا يتقدم.

نظر إليَّ رئيس الحرس وقال:

- انقلع.

انقلعتُ مُودَّعاً بركلة من الحارس على مؤخرتي، وسرت بمحاذاة الجدار المحيط بالقصر الذي تعلوه أسلاك شائكة، فقررت تجاوز الحرس وعثرت على صندوق اعتليته وقصصت الأسلاك وقفزت إلى الداخل. وهناك كانت الكلاب في انتظاري،

فتعالى نباحها وأخذت تتبارى في نهشي، وسرعان ما ظهر الجنود واقتادوني إلى رئيس الحرس نفسه.

- حسن. ضعوه في الحجز إلى أن تحين العاشرة، ثم دعوه يقابل سيادته.

قال رئيس الحرس وعلى وجهه ابتسامة صفراء، بينما أخذت أشرح له موضحاً:

- عن أية عاشرة تتحدث يا سيدي؟ عن أية عاشرة؟

ثم فُتح باب حديدي وألقي بي إلى الداخل، فوجدت نفسي على الأرض في قبو واسع شحيح الإضاءة، وسرعان ما تحلقت حولي مجموعة من البشر، كهول بشعور ولحى بيضاء وعظام نافرة حتى ليبدو وكأن الواحد منهم قد تجاوز الألف عام من العمر، وتهيأ لي لوهلة أني في مملكة الأموات.

- كم الساعة؟

سألني أحدهم بجدية واهتمام. فأجبته:

- الثالثة ليلاً. ولكنها ليست كذلك...

انفض الجمع عني من دون الاهتمام بما كنت سأضيفه، وكلٌّ منهم يحدث نفسه:

- تباً... تباً... أما زالت الثالثة؟ لن نخرج من هنا أبداً.

ثم تبددوا في أرجاء المكان المظلم وساد سكون ثقيل، وسرعان

ما جاء آخرون كان بينهم نساء وأطفال إضافة إلى الكهول، وكان لهم طلب واحد جاء على لسان مراهق بينهم سألني بنبرة يشوبها الشك:

- هل هناك شيء اسمه الضوء؟

- نعم، كان هناك شيء اسمه الضوء قبل أن تتوقف الساعة.

قلت مجيباً عن سؤال المراهق. فوبَّخه كهل:

- هل صدقت الآن أيها الغبي؟

تبين أن عشرات الأجيال ولدت هنا، معظم هؤلاء الكهول ولدوا وترعرعوا هنا، وتبين أن هناك مقبرة تضم رفاة الكثيرين ممن جاؤوا قبلي للتنبيه عن توقف الزمن. تذكرت تلك البغال التي سمعت عنها والتي كانت تعمل في منجم للفحم جنوب بولونيا، حيث أنها كانت تولد وتموت في المناجم. هل سيحل بي ما حل بها؟ يا ليتني تقبلت الأمر وبقيت هناك! على الأقل هناك يوجد مطعم «بوز الجدي».

بعد انتظار يقدر بسنوات، تزوجت أنا أيضاً من امرأة لم ترَ النور، وأنجبت منها عشرات الأطفال. لم يكن لدينا عمل في هذا القبو سوى إنجاب الأطفال، ولم يكن أطفالي يطلبون مني سوى أمر واحد، وهو الحديث عن الضوء. فحدثتهم عن الشمس، وكيف يرى الإنسان في ضوئها كل شيء بوضوح، وعن القمر والمصابيح

القوية التي لا تشبه هذه المصابيح التي لا يتجاوز مفعولها مفعول سراج زيت معلق في الحائط. حدثتهم عن أشياء كثيرة كنت ألاحظ أنها تفرحهم، كان حديثي عن الضوء يشبه حديث قديس لفلاح مؤمن عن الجنة. كبر أولادي وتزوجوا وأنجبوا وصرت أقص لأحفادي ذكرياتي عن الضوء، الضوء الذي صرت على قناعة تامة من أنني لن أراه بعد اليوم، ولكن توقعاتي كانت خاطئة؛ ففي وقت لاحق أجهل تاريخه - كوننا قد توقفنا عن التعامل بوحدات الزمن - حدثت جلبة في الخارج، ثم سمعت دقات المطارق الضخمة على أقفال البوابات، وسرعان ما تكسرت هذه الأقفال وفتحت البوابات، وسمع نداء تردد على أكثر من لسان في الخارج: «إلى الضوء... إلى الضوء».

ركض الجميع باتجاه البوابات التي انفتحت، وتدفقنا إلى الخارج مثل قطعان العجول التي تغادر الزريبة صباحاً إلى المرعى، وسقط البعض تحت أقدام المتدافعين، فسُحقوا ولم يلتفت إليهم أحد. ولكن الحشود الضخمة التي تبين أنها خرجت من عدد كبير من الأقبية ما إن تجاوزت السراديب ووصلت إلى الخارج حتى اصطدمت بموجات الضوء التي كانت تنبعث من الخارج، وأخذ الجميع يحجب الضوء عن عينيه براحة يده. العيون التي عاشت كل حياتها في الظلام لم تتحمل الضوء. وبعكس حالة الهيجان التي اتسم بها خروجهم، فإن عودتهم إلى الأقبية من جديد كانت

بطيئة جداً. كان كل واحد يضع يديه على كتف الذي أمامه ويسيرون متحسسين طريقهم وقد أحرق الضوء عيونهم. أحد أبنائي شاهدته يتلمس الجدار بكفه والأرض بأصابع رجليه ويبكي بحرقة معاتباً إياي:

- أهذا هو الضوء الذي حدثتنا عنه يا أبي؟

أعتقد أنني في تلك اللحظة فارقت الحياة، لأنني لا أذكر شيئاً بعد هذا المشهد.

1989

أجنحة

على الرغم من إدراكهم التام بأنهم في معظم الأحيان يكونون عاجزين عن تقديم أية مساعدة، فإن الأصدقاء دائماً يسألون أصدقاءَهم عن السبب الذي يعكر مزاجهم.

وهذا ما فعله شكيب عندما رأى صديقه حسيب معكر المزاج صباح هذا اليوم.

- ما الذي يعكر مزاجك؟

- رأيت مناماً مزعجاً.

قال حسيب، وصمت ربما لعدم رغبته في تذكر أحداث ذلك المنام التي يبدو أنها مرعبة. ولكن، وكما هي عادة الأصدقاء، لم يتوقف شكيب عن السؤال:

- خير انشالله؟

- حلمت بأنني أقف على حافة النافذة في منزل أهلي القديم أراقب ما يجري في الشارع.

وهنا تدخل شكيب ظناً منه أنه أمسك بطرف الخيط الذي يستطيع أن يجر به صديقه من خانة الاكتئاب إلى خانة الانشراح، فقاطعه:

- عادي... كلنا تراوده الأماكن التي عاش فيها سابقاً في الأحلام. إنه الحنين يا صديقي... الحنين.

امتعض حسيب للثقة المفرطة بالنفس التي يشعر بها شكيب بشكل غير مبرر، وردَّ ممتعضاً:

- ومن قال لك إن الحنين هو الذي يؤرقني؟ استمع حتى النهاية ثم احكم.

- ماشي.

قال شكيب ممتثلاً لطلب صديقه أديب، بينما تابع الأخير كلامه.

- فجأة، وأنا أقف على حافة تلك النافذة، نبت لي جناحان في ظهري...

ومرة أخرى ظن شكيب أنه قبض على رأس ذلك الخيط، وأنه في هذه المرة حتماً سينتزع أديب من براثن الاكتئاب:

- عادي... من منا لا يحلم بالحرية؟ إنها الحرية يا صديقي... الحرية.

امتعض أديب مرة أخرى وطلب من شكيب أن يستمع:

- ومن قال لك إن الحلم بالحرية يسبب الاكتئاب؟ استمع حتى النهاية ثم احكم. عليك أن تعرف أولاً أي جناحين نبتا لي.

- أي جناحين؟

سأل شكيب وقد بدا عليه الفضول هذه المرة، فأجابه أديب وقد غرق في حالة الاكتئاب:

- جناحا صرصور... ثم نبت لي قرنا استشعار.

- أعوذ بالله!

قال شكيب هذه المرة ولم يبذل أية محاولة لمساعدة صديقه، بينما تابع أديب:

- وبواسطة هذين القرنين شعرت بحركة مريبة خلف ظهري، فالتفتُّ إلى الوراء وإذا بزوجتي تحمل شحاطتها وتهوي بها عليَّ... وتسحقني.

ارتسمت ملامح الرعب على وجه شكيب الذي يبدو أنه تخيل الموقف بكل بشاعته، فقال بشكل آلي:

- يا ساتر!

بينما صمت أديب للحظة ثم تابع:

- هل تعرف بماذا يشعر الصرصور عندما تهوي عليه شحاطة؟

- بماذا؟

- يشعر أن السماء قد انطبقت على الأرض... ثم بعد ذلك لا يشعر بشيء.

وهنا أدرك شكيب ما الذي يزعج صديقه أديب في ذلك الحلم. لقد شاهد نفسه صرصوراً... فحاول في هذه المرة أن يهون عليه ويخفف من حالة الاكتئاب مدركاً أن إخراجه من هناك كلياً أصبح أمراً صعباً.

- عادي... لا يزعجنَّك ذلك؛ فما الفرق بيننا وبين الصراصير يا أخي؟ والله إن ما ينزل على رؤوسنا كل يوم يفوق همجية تلك الشحاطة التي سحقتك بها زوجتك في المنام. نحن في الواقع لا نختلف عن الصراصير في شيء. أما زلت لا تدرك ذلك؟

- أدرك؟

قال أديب مقاطعاً وأردف بنبرة لا تخلو من التهكم لسذاجة صديقه:

- دائماً أشعر بصرصوريتي على أرض الواقع، وأنا معتاد عليها منذ زمن بعيد، وهذا لم يعد يزعجني أبداً.

وهنا ضاق صبر شكيب ولم يعد يحتمل الترهات التي يتحدث بها أديب، وصاح به بين الجد والمزاح:

- احترنا يا أقرع من وين بدنا نمشطك! شو اللي زاعجك لكان يا أخي؟

- الذي يزعجني أن الصرصور لحق بي من الواقع إلى الحلم.

ثم شرد قليلاً وارتسمت على وجهه علامات خالية من أي تعبير، مثل تلك التي على وجوه الصراصير، وتابع:

- في السابق، كنت أحلم بأنني إنسان.

النحل الأزرق

قمة السعادة أن يشعر المرء أنه زهرة، وردة دمشقية جورية، بنفسجة، زهرة رمان أو لوز أو مشمش أو حتى أقحوانة برية. أشعر بنفسي كذلك الآن. لا أستطيع تحديد نوع الزهرة التي أنا هي، ولكن النحل الذي يئز قرب أذني يؤكد لي أنني زهرة، ربما برية؟ لا أدري، ولكن هذا لا يهم. المهم أنني زهرة. آه لو أنني أستطيع أن أشم الرائحة، لربما تمكنت من تحديد نوع الزهرة التي هي أنا. لعنة الله على هذا الزكام! ها هي نحلة تحط عليَّ وتغرس خرطومها لتنهل الرحيق، ألف عافية وصحة! فما رحيقي إلا لك، اصنعي منه ما تشائين من العسل، حطي على زهرة أنثى ولقحيها، فلَكِ يعود الفضل في جعلنا نملأ المرج بعطرنا وألواننا الزاهية. آه لو أن أنفي يستطيع تبين الرائحة التي تفوح مني! لأدركت أي

وردة أنا. على كلٍّ، هذا لا يهم إطلاقاً، فالمهم أنني وردة. لعنة الله على هذا الزكام! أرجو قبل أن أذبل وتتساقط أوراقي أن يهتدي إليَّ عاشق ليقطفني ويقدمني لحبيبته ستشعر حبيبته بالسعادة، لا يوجد للأنثى فرحة تعادل فرحتها بوردة يقدمها لها حبيبها، خاصة إذا كانت وردة حمراء. أرجو أن يكون لوني أحمر، وأرجو ألا يكون أصفرَ أيضاً؛ يقولون إن الأصفر يُقدَّم في العزاء، أرجو ألا أُقدَّم في العزاء، فهناك فرق كبير بين أن يضعوني على نعش وبين أن يضعوني في مزهرية. سأذبل أخيراً على كل حال وتتساقط أوراقي، ولكنَّ هناك فرقاً بين أن أذبل في مزهرية أو فوق قبر. على العموم، النهاية مؤسفة حتى عندما أكون في مزهرية، فنهايتي في صندوق القمامة. من المؤسف أنهم لا يدفنون الورد بعد موته، لو أنهم على الأقل يلقون به في البرية أو في مكان نظيف، وليس في حاوية القمامة. إنه أمر يدعو إلى الحزن أن تقوم الوردة كل حياتها بتقديم الروائح العطرة ثم تلقى في مزبلة تفوح منها رائحة العفن والأطعمة الفاسدة، ولكن البشر لا يفكرون كما يفكر الورد. على كلٍّ، يكفيني أنني قدمت رحيقي وعطري للجميع وقمت بواجبي على أكمل وجه. عدة نحلات دفعة واحدة تغرس خراطيمها في رحيقي وتنهل منه. لا تتقاتلن، لا تتقاتلن! هناك ما يكفي من الرحيق لكنَّ جميعاً. آه لو أنني أستطيع أن أشم رائحتي لأعرف من أنا! تباً لهذا الزكام! يا إلهي! جُنَّ جنون النحل. لا بد من أن

رحيقي لذيذ جداً ليجعلها تنهشني نهشاً بدلاً من أن تنهل منه. سأفتح عيني، وإذا اقتربت نحلة سأغلقها. يا إلهي! إنها أسراب من الذباب الأزرق تحوم حولي وتنهش مني، تغرس خراطيمها بي وتنهل بنهم! لست وردة إذاً، متى تنقشع هذه الغيوم اللعينة لكي تشتد الشمس وتجففني لعلني أتخلص من أسراب الذباب الزرقاء اللعينة هذه؟ من الذي فعلها هنا يا ترى؟ لو انني أستطيع أن أشم الرائحة لتكهنت من أكون. من الجيد أنني لا أشم، الحمد لله على هذا الزكام!

سوزانا

سوزانا هي المرأة التي داعبت أحلام جميع العشاق في هذه المدينة، لم يبق عاشق إلا وتخيلها، ومن نافل القول إنها كانت في أحلام هؤلاء العشاق أجمل امرأة في الكون والتاريخ معاً. شاخ الكثيرون منهم وهم ينتظرون سوزانا، ومات قسم كبير أيضاً، ولكن سوزانا لم تتجسد لهم.

منذ أيام قيل إن امرأة تدعى سوزانا جاءت إلى المدينة، وبطبيعة الحال خرج جميع العشاق لاستقبالها. تحلقوا حولها وأخذوا يغنون ويرقصون لها، وفي غمرة الفرح لم ينتبه أحد إلى وجه سوزانا التي كانت تغني لهم إحدى أغاني العشق. ولكن أحدهم نظر إلى وجهها في أثناء الرقص، فاكتشف أن هذه المرأة ليست سوزانا التي كانوا ينتظرونها في الحلم، وصاح:

- إنها قبيحة!

لم ينظر أحد من العشاق إلى وجه سوزانا، بل بصق الجميع في وجه العاشق الخائن وركلوه، وصرخ به أحدهم:

- انقلع من هنا! أنت لا تفقه في النساء... من هم على شاكلتك لا يستحقون شرف الرقص في استقبال سوزانا.

انصرف الرجل. ولكنه ظل بين الفترة والفترة يحاول تنبيههم إلى قبحها، وظلوا يبصقون في وجهه ويطردونه.

أحد العشاق كان مرجعية موسيقية، وألَّف الكثير من الألحان في عشق سوزانا، بعد أن شبع فرحاً من لقاء الحبيبة انتبه إلى أن صوتها نشاز، فحاول تنبيه الراقصين:

- إن صوتها قبيح.

ولكن أحداً من العشاق الذين أخذهم الطرب بصوتها لم يفكر في ما يقوله الذي كان حتى لحظات مضت موسيقاراً في نظر الجميع، وبصقوا جميعهم في وجهه وركلوه، وصرخ أحدهم في وجهه:

- انقلع من هنا! أنت لا تفقه في الموسيقى والغناء.

وأضاف آخر:

- حمار معبا ببنطلون.

وتابعوا الرقص. وظل الذي كان حتى الأمس موسيقار العشاق

يحاول تنبيههم إلى أن صوتها نشاز، وظلوا يبصقون في وجهه وينعتونه بأنه حمار معبَّأ في بنطال.

بعد عدة رقصات نظر أحد العشاق ليملأ عينيه من جمال سوزانا، فوقف شعر رأسه وسرت في بدنه قشعريرة وصاح:

- إنها مومياء!

ولكن أحداً ممن تبقى من العاشقين لم يعر كلامه اهتماماً، وبصقوا في وجهه هو الآخر وركلوه وطردوه، وصرخ به أحدهم هازئاً:

- لا يعيب النبيذ تعتيقه أيها الأحمق.

ظل شعر رأس هذا واقفاً لأن صورتها لم تفارق عينيه، وظل يحاول تنبيههم إلى أنها عجوز يعلوها الصدأ والكلخ، وظلوا يبصقون في وجهه.

هب هواء رفع ثوب سوزانا، فاقشعر بدن عاشق آخر وصاح:

- إنها ليست امرأة! شعر كثيف يعلو ساقي سوزانا... وقطعة مشبوهة تتأرجح بينهما.

بصق الجميع في وجهه وطردوه، وصرخ به أحدهم:

- شعر كثيف يعلو دماغك أيها الأحمق! اذهب إلى طبيب العيون وعالج نظرك... تفو!

ولكن في هذه المرة ظهر من يؤكد كلام الرجل الذي شاهد ساقي سوزانا، وقال:

- يا جماعة، الرجل على حق. إنها ليست سوزانا. بالأحرى إنه ليس سوزانا. إنه أحد خصيان الأمير.

بصق الجميع في وجهه واتهموه بأنه هو الخصي ابن الخصي، وطردوه مع ذلك الذي شاهد ساقي سوزانا.

ومنعاً لظهور مثل هؤلاء الخونة في صفوف العاشقين، قام أحدهم بتوزيع طماشات سوداء وضعوها على عيونهم لكيلا يروا سوزانا التي أخذتها النشوة، فأخذت تتعرى غير آبهة بالشعر الذي يكسو ساقيها، ولا القطعة التي تتأرجح بينهما، ولا ببدنها المترهل وجلدها المتشقق الذي يعلوه الكلخ والرائحة الغريبة التي تنبعث منها.

استمر العشاق يرقصون حول سوزانا العجوز العاريـ(ـة)، التي يكسو بدنها شعر كثيف، وتحت طماشاتهم السوداء كانت ترقص وتغني سوزانا التي كانوا يحلمون بها.

فوبيا

كعادته كل صباح بعد أن يحتسي راشد قهوته، ترتخي أمعاؤه، فيضع صحف البارحة التي جلبها من الدائرة التي يعمل بها تحت إبطه ويهرع لقضاء حاجته. يقرأ هناك الصفحة الثقافية من كل جريدة، ويحلُّ الكلمات المتقاطعة ويشاهد الصور جميعها. وفي هذه المرة، بعد أن قرأ القصائد والقصص، وكان قد قضى نصف حاجته، لفتت انتباهه صورة لكبار رجال الدولة وقد عقدوا الدبكة في إحدى الساحات، وكانت تتصدر مقالة احتوى عنوانها على عبارة عرس انتخابي. ابتسم عندما شاهد الصورة التي بدت أقرب إلى رسم كاريكاتيري، وأخذ يرسم لرجالات الدولة شواربَ وذقوناً، ورسم على رأس وزيره طنجرة، وفكر في أن يرمي الجريدة على إحدى الطاولات في الدائرة ويراقب ردات الفعل، وأعجبته

الفكرة؛ لكنه أجرى تعديلاً طفيفاً، فالطنجرة على رأس الوزير دعابة ربما تثير ضحك الوزير نفسه، وهو يريد أن يمرغ أنف الوزير بالوحل، هو نفسه لا يعرف لماذا. وقرر بعد خروجه من الحمام أن يقص صورة حذاء ويلصقها فوق رأس الوزير، صورة مثل هذه ستفعل فعلها. وأخذ يتخيل أحد الوشاة وهو يسلم الصورة لمدير مكتب الوزير، وكان يريد أن يتخيل مدير المكتب وهو يعرض الصورة على الوزير عندما أصابته رعشة لا تفسير لها في مكان القلب. وضع يده على قلبه وشعر بقلق، وعندما تكررت الرعشة أصابه رعب، ليس من الموت؛ فكل نفس ذائقة إياه، ولكن من الموت في هذا المكان تحديداً. تخيل الموقف فوراً: سيتأخر عن العمل وسيتصلون به فلا يرد على اتصالاتهم فيقلقون، فيحضرون إليه ويقرعون الباب فلا يفتح، فيكسرونه ويدخلون، ويبحثون عنه في المنزل فلا يجدونه، ويهمون بالخروج من دون أن يعثروا عليه. ولكن أحدهم، أو بشكل أدق إسماعيل، ذلك الذي يقضي حاجته الصغيرة في كل مكان يدخل إليه بسبب ارتفاع السكر، سيتوجه إلى الحمام من أجل هذه الغاية، وسيعثر عليه هناك منكباً على وجهه قرب مقعد الحمام ومؤخرته المكشوفة تتصدر المشهد. سيرشون عليه الماء لأنهم سيظنونه في غيبوبة ويحاول بعضهم رفعه من هناك وتغطية مؤخرته، ولكن فؤاد سيصرخ بهم لكي يدعونه كما هو، فلعلَّ في الموضوع جريمة قتل. عندها تغيير

معالم المكان سيؤثر في مجرى التحقيق وربما توجه التهمة لمن رفعه على أساس أنه فعل ذلك خصيصاً ليخفي أدلة ما. وستأتي الشرطة وسيأتي المصور الجنائي يلتقط له الصور من جميع الزوايا، وستخلد صور مؤخرته في أرشيف العدالة. قفز راشد عن المقعد وقام بالإجراءات اللازمة لمغادرة المكان بأقصى سرعة ممكنة وخرج.

كانت حياة راشد تشبه حياة ساعة الجدار تقريباً، أو أي ساعة أخرى، فهو يستيقظ في الصباح ويقوم فوراً بوضع دولة القهوة على نار هادئة ثم يغسل وجهه بالماء بلا الصابون ويعود ليسكب فجان قهوته الصباحية الكبير الحجم نسبياً ويبدأ بمطالعة الصحف. وعندما ينتهي من احتساء القهوة تكون أمعاؤه قد بدأت بالتحرك، فيضع بقية الجرائد تحت إبطه وينتقل لقراءتها في الحمام. أسوأ شيء كان يتصوره راشد هو أن يضطر إلى الخروج قبل أن يقضي حاجته، ولذلك فإن اليوم هو من الأيام السيئة لراشد الذي اضطر إلى الخروج من الحمام من دون أن يقضي أكثر من نصف حاجته. بعد الفطور ستتأزم الحالة وسيصاب بالنفخة وسيعاني وضعاً غير مريح؛ سيكون يومه تعيساً، يحب ألا يقضي حاجته في الوظيفة، ولكن يبدو أنه سيضطر اليوم إلى فعل ذلك. يجب أن يزود كل مكتب بمنافعه الخاصة، لا يجوز أن يكون هناك في العمل حمامات عامة للجميع، الموظفين والمراجعين... ما

الذي يجعل المراجع يحتاج إلى حمامات؟ هي دقائق وينصرف، لماذا لم ينته من هذه التفاصيل قبل أن يخرج من البيت؟ عشرات الموظفين في الدائرة، هل تكفيهم ثلاثة أو أربعة حمامات؟ في الدول المتحضرة يحسب حساب لمثل هذه الأمور، في كل دائرة هناك حمامات عامة وحمامة خاصة بالموظفين، ولكن هيهات منا الحضارة! عندنا كل شيء رفع عتب؛ الحمام ينظف مرة واحدة في اليوم، وإذا دخل شخص قذر غير مهتم بنظافة الدائرة فإن نتائج سفالته ستبقى إلى صباح اليوم التالي. بعضهم يفعلها وهو يتحدث بالهاتف، لا أريد الحديث عن هذا الموضوع. قال راشد شاعراً باليأس، وارتدى ثيابه وأخذ معه عدة علب محارم لكيلا يلامس بدنه أية نقطة من بورسلان الحمام. سيكون ذلك حلاً مقبولاً.

المشكلة الوحيدة أنه في حمام الدائرة لن يتمكن من إدخال الصحف معه، لأنه لو فعل ذلك سيتحول إلى سخرية، وربما يتهمه البعض بوطنيته لأن فيها صوراً لقيادات من غير المقبول إدخالها إلى الحمام. ولكن لماذا البعض؟ فمن سيخونه هو فارس الذي يقوم بأداء التحية العسكرية للصورة المعلقة في صدر المكتب كل يوم عند دخوله، ولا ينسى أن يقول «احترامي سيدي»، ويصفق نعله بالأرض. إذا علم فارس أن هذه الصورة دخلت إلى الحمامات لن يتوانى عن توجيه تهمة الخيانة العظمى إلى راشد. صحيح أن الأجهزة المختصة ربما لن تتفق مع فارس بتوجيه هذه

التهمة، ولكنها ستوجه إليه تهمة وهن عزيمة الأمة بكل تأكيد. البعض الآخر سيكفِّره ويتهمه بإيمانه لأنه ربما يكون فيها كلمات مقدسة، ولكي نكون أكثر دقة، فإن الذي سيكفره تحديداً هو الشيخ عماد الذي يؤكد على عدم إدخال أي شيء مكتوب إلى الحمامات حتى لو لم يكن فيها نصوص مقدسة، إذ يكفي وجود الحروف التي يكتسب كل حرف منها صفة القدسية لأنها جميعاً تدخل في تكوين النصوص المقدسة. وعندما يكفرك الشيخ عماد فهذا يعني أن أكثر من نصف الموظفين سيكفرونك. شعبنا لا هم له إلا السخرية وتوجيه الاتهامات. قال راشد لنفسه وأخفى الجريدة تحت جاكيته، وكم تضايق حين اكتشف بعد دخوله أن أحدهم قد سبقه إلى حل الكلمات المتقاطعة فيها. لم تكن العملية في الدائرة ممكنة بالسلاسة نفسها التي تجري فيها في المنزل، خاصة أن أكثر من شخص أمسك بمقبض الباب وأداره في أول ثلاث دقائق، حتى الصفحة الثقافية غير موجودة... ماذا سأقرأ الآن؟ فكر راشد ثم تساءل: الإعلانات؟ وأخذ يقرأ الإعلانات، واكتشف أن فيها الكثير من الأشياء الممتعة، وكاد يباشر في الموضوع الذي جاء من أجله ولكن الفكرة التي داهمته بعد الرعشة في المنزل عادت لتراوده هنا: ماذا لو قرر القلب التوقف هنا؟ ما الفرق بالنسبة إليه بين المنزل والدائرة؟ القلوب تستطيع أن تتوقف في أي مكان، بالنسبة إليها كل الأمكنة صالحة لذلك. سيناريو المنزل

أمر تافه مقارنة مع ما يمكن أن يحدث في سيناريو الدائرة الذي تولفت حبكته في رأس راشد، سيستغرب أحد ما، على الأغلب سيكون اسماعيل الذي حضر إلى الحمام عدة مرات ووجده مغلقاً، وسيعلم الموظفين بالأمر، فيأتي أحدهم أو ربما بعضهم ويطرقون الباب، ثم سيكسرونه فيشاهدون راشد هناك منكباً على وجهه وقد تصدرت مؤخرته المكشوفة المشهد. سيطلب منهم فؤاد عدم التدخل بمعالم الجريمة، وسيشير إليه الشيخ عماد ويخاطب الجميع قائلاً إن هذه ميتة من لم يكن يقرب الصلاة، من يرغب في ميتة كهذه فليتقاعس في صلاته. وسيكون بين الجمهور مراجعون، وربما، لا... لا ليس ربما، بالتأكيد سيخرج بعضهم الموبايلات ويصورون المشهد، وسينشر الفيديو على الفيس بوك واليوتوب ويحقق نسبة مشاهدات مرتفعة، وسيعلق القطيع الذي يحتل وسائل التواصل بعبارات لا تعرف الرحمة ولا تراعي أدنى حرمة للموت. هب راشد واقفاً واتخذ الإجراءات بسرعة وخرج من الحمام تاركاً كل شيء كما هو وأكمل نهاره منزعجاً من النفخة التي كانت تثقل أمعاءه، وقرر اعتباراً من اليوم أن يتبع حمية لا يتناول خلالها إلا اطعمة خفيفة سهلة الهضم لا يشعر الإنسان بها في أمعائه. ولذلك قرر التخلي عن الخبز وجميع أنواع المعجنات، وعن والفول والحمص والعدس وكل أنواع البقول، وكل أنواع الطعام المقلي، وأشياء كثيرة أخرى. وركز راشد على

الشوربات، وخاصة شوربة الدجاج وشوربة الخضار. سيبدأ بذلك غداً، وربما اليوم على الغداء، ولكن الأهم من ذلك كله إنهاء ما كان قد بدأه صباحاً والحصول على شعور بالراحة. دخل مرة أخرى إلى الحمام محاولاً تجاهل تلك الفكرة، ولكنه لم يستطع. كانت تلح عليه. قرر زيارة صديق له يحب لعب النرد وقرر التسلي عن تلك الفكرة بالنرد وانفعالاته التي يتسم بها اللعب مع ذلك الصديق، لعله يستغل الفرصة ويحقق خرقاً يساعده على إنهاء الموضوع. وفعلاً قهقه راشد كثيراً عندما قام صديقه المغلوب بطحن الزهر الخائن بمطحنة القهوة، وذهب لكي يصنع الشاي، فاستغل راشد الفرصة وانسل إلى الحمام وقد أصبحت أمعاؤه تلح عليه بشكل لا يطاق، وتمنى أن يحدث الأمر بسرعة تجعل الفكرة تتأخر في الاستحواذ عليه، ولكنه لم يكد يجلس على المقعد حتى أخذت الفكرة ترسم له السيناريو: سيحضر صديقه الشاي، وبعد قليل سيبرد الشاي، فيقلق صديقه ويذهب إلى الحمام. ينقر على الباب ويتساءل مازحاً:

- أما زلت حياً؟

ثم لا يسمع رداً. فيكسر الباب ويشاهد ذلك المنظر الذي ما أن يتخيله راشد حتى يقشعر بدنه. فلملم نفسه وخرج مسرعاً.

فكر راشد في أن الحمامات العامة في الشارع ربما تكون مكاناً حيادياً، ولكن أبشع السيناريوهات تشكلت في مخيلة راشد

هناك: سيجدونه مرمياً ومؤخرته مكشوفة، وسيصوره الكثيرون، وستتسابق مواقع المحطات الفضائية على عرض الفيديو مروسة إياه بعناوين مشوقه من نمط «بالفيديو... رجل دخل إلى المنافع العامة فماذا حصل؟» أو شيء من هذا القبيل. وحدها الصحف التي تحترم نفسها ستقول بوضوح ومن دون تجارة على الموضوع «العثور على جثة رجل في المنافع العامة». ثم تحسس راشد جيبه فاكتشف أنه لا يحمل هوية، فعدَّل العنوان إلى «العثور على جثة رجل مجهول في المنافع العامة»، وعاد أدراجه قبل أن يدخل إلى هناك.

لم يذق راشد طعم النوم، تقلب كثيراً ولم يجد الراحة في أي وضعية. بطنه المنفوخ يبعث على الجنون. قرر أكثر من مرة أن يدخل وينهي الأمر، وليكن ما يكون. ولكنه كان يعجز في منتصف الطريق ويستسلم للفكرة اللعينة، وقد كانت أمعاؤه المرتبكة متآمرة معها، حيث أنها لم تكن تلبي رغبته مع أنه في كل مرة كان يشرب القهوة.

قرر راشد الذهاب إلى الطبيب، الذي فحصه وأكد له أن له قلب حصان، وأن أي خطر من ناحية القلب لا يهدد حياته. وما الرعشة التي شعر بها سوى تقلص عضلة في منطقة الصدر يحدث لأي سبب تافه. شعر راشد بالارتياح لهذا الكلام وأسرع باتجاه المنزل للانتهاء من الأمر وهو مطمئن البال، ولكن الرعشة عادت

إليه بقوة وشعر للحظة أنه لم يتمكن من التقاط نفسه، فخرج مسرعاً وقد تكونت قناعة راسخة في داخله بأن الطبيب «حمار» كما يحب شعبنا وصف الأطباء عندما لا يتفقون من تشخيصاتهم. راجع راشد أطباء كثيرين، وكانت النتيجة نفسها: «قلبك سليم». وأخيراً توصل راشد إلى نتيجة مفادها أنه يعاني من مرض جديد في القلب لا يعرفه الأطباء، وقرر أنه «لا يحك جلدك غير ظفرك»، فبدأ بالتفكير في اختراع يقوم بستر الإنسان إذا سقط ميتاً في المرحاض قبل وصول الفضوليين والطفوليين. فكر أولاً في بنطال يقوم برفع نفسه خلال خمس دقائق إذا لم يضغط صاحبه على زر معين، وضع الكثير من الدراسات لهذا البنطال. ثم فكر في اختراع رجل آلي يعيش في الحمام ويقوم كل خمس دقائق بسؤال صاحبه: «هل أرفع لك بنطالك؟»، فإذا أجاب بـ«لا» يعود الرجل الآلي إلى زاويته، وإذا لم يجب يقوم الرجل الآلي برفع بنطاله. وهكذا حمل راشد المخططات التي قام بها وأخذها إلى لجنة تسجيل الاختراعات لكي يحصل هناك على براءة اختراع، ولكنه قوبل هناك بالسخرية وطردوه بشكل لبق. إلا أن أعضاء اللجنة الأعلى التي تقدم إليها راشد لم يتحلوا باللباقة، فقد طردوه بشكل فج. ومن لجنة إلى أخرى وجد راشد نفسه في مستشفى الأمراض النفسية وقد وضع قرب اسمه في الملفات تشخيص لا يتمتع به سوى شخص وحيد في العالم، هو راشد، ألا وهو «فوبيا

المراحيض». عاش راشد سنوات عدة في المستشفى متابعاً أبحاثه في البنطال والرجل الآليين، إلى أن اندلعت الحرب التي وصل أوزارها إلى مستشفى الأمراض النفسية هذا، فهرب الطاقم الطبي والنزلاء واختفت آثار راشد. ولكن بعد عام من ذلك، انتشرت في الأسواق بناطيل من صناعة الصين ترفع نفسها من تلقاء نفسها، ورجال آليون من صنع اليابان مهمتهم رفع بنطال الشخص في الحمام إذا لم يجب عن السؤال المطروح. هل لراشد علاقة بهذين المنتجين أم لا؟ هذا ما لن نعرفه أبداً، ربما.

بين السطور

عندما كان صغيراً، كان يعاني من عمش في العينين. ولذلك فقد كان يفتحهما ويغلقهما دائماً لكيلا يلتصق الجفنان، ولهذا السبب أطلق عليه أحدٌ ما لقب «دعميص»، الذي سرعان ما حل مكان اسمه. وعلى الرغم من مرور السنين وانتهاء حالة العمش، فقد ظل دعميص الاسم الذي يتداوله الناس عندما يتطرقون بالحديث إليه، وحتى هو أصبح منذ سنوات يعرِّف عنه نفسه بهذا اللقب. ومن مواصفات دعميص أنه حين يريد أن يقول شيئاً فإنك تقرأ على وجهه ذلك، وعندما دخل إلى الغرفة اليوم قرأت على وجهه ذلك، فعاجلته:

- أسمعك.

فردَّ قبل أن تلامس مؤخرته مقعد الكرسي:

- قصة حدثت معي يوم أمس، سجلها عندك للتاريخ وانشرها بعد أن أموت، ستدخلك التاريخ معي.

- خير... طمئنّا؟

كان لا بد أن أقول له ذلك لكي يتابع.

- منذ يومين أو ثلاثة أيام تقريباً، بعد منتصف الليل، وقرب مدفأة الحطب، والريح تزأر في الخارج، تزأر وليس تصفر... هل تفهم ما أقصد؟

- نعم، فهمت ما تقصد... ريح قوية.

- نظلمها إذا قلنا إنها قوية فقط... رياح عاصفة بكل معنى الكلمة.

- المهم...

- المهم يا سيدي أنني تحت تأثير هذا الجو المتمرد تمردت أيضاً.

- يا ساتر يا رب! وماذا فعلت؟

- كتبت قصيدة ضد السلطة. إن لم أُحكم بالإعدام بسببها فإنني سأحكم بالمؤبد حتماً.

- هل أرسلتها للنشر في جريدة ما؟

- هاهاها! وهل أنا أحمق؟ لو نشرتها لما رأيتني قبالتك هنا الآن.

- ومما خوفك طالما أنك لم تنشرها، فالسلطة لن تعرف أنك لم تنشرها!

- انتظر حتى أكمل لك القصة.

- تفضل...

- بسبب غبائي الشديد الذي أعترف به من دون أي إحراج، لم أقم بإحراق القصيدة في المدفأة فوراً، بل كنت أحملها في جيبي وأسير بها في الشارع وكأنني لم أفعل شيئاً، وعند المنعطف الذي قرب بيت أبي فارس... هل تعرفه؟

- نعم، نعم أعرفه.

- في منتصف الطريق تقريباً ألهمني الله ونظرت إلى الخلف، وإذ بسيارة رانج حمراء وبيضاء تسير خلفي... قلت في نفسي: خانك قدرك يا دعميص. لم يعد في إمكاني أن أفعل شيئاً. بالقرب مني كان هناك معمل بلاط... هل تعرفه؟

- أعرفه.

- فكرت أن أدخل إليه ريثما تتجاوزني السيارة، ولكنني خشيت أن يحسبوني لصاً إن دخلت، فالمعمل مغلق ولا يوجد أي مبرر لدخولي. لذلك تابعت طريقي وكأن شيئاً لم يكن. هل كنت ستفعل مثلي لو أنك تعرضت لمثل هذا الموقف؟

- طبعاً، طبعاً.

- لذلك أسرعت الخطى قليلاً بحيث لا ألفت أنظارهم، وانسللت إلى دكان أبي داود بسرعة. هل تعرف أبا داود؟

- أعرفه... أعرفه.

- طبعاً، ومن لا يعرف أبا داود؟ يعرف أبو داود أنني عاشق «السبرايت»، ولذلك فتح عبوة ومدها إليَّ فور دخولي. فأخذتها بينما بقيت عيناي تراقبان الخارج لكي أطمئن إلى عبور سيارة الرانج. لكن لأن الله يحبني وقفت سيارة الرانج أمام دكان أبي داود وترجل عنصران من السيارة، وهنا لم يعد لدي شك في أن الشباب الطيبين يتعقبونني شخصياً، وأن ذلك لم يكن مصادفة. ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

- لا أدري.

- أما أنا فأدري. قمت بسحب القصيدة من جيبي ووضعتها في فمي وبدأت ألوكها. أحدهم نظر إليَّ فخشيت أن يدرك ما الذي أفعله فيطلب مني أن أخرجها، فبلعت الورقة. ولأنني لا أعاني أبداً من الذكاء، فإنني لم أكتب القصيدة على ورق أصفر يملأ غرفتي، لا، لم يعجبني إلا الورق القيصري الأبيض المصقول، فعلقت في البلعوم وخشيت أن أتقيأ، وأخذت أغبُّ من «السبرايت». بعدها ففتح لي أبو داود علبة ثانية وناولني إياها فتابعت الغب. أما العنصران، فقد قاما بشراء علبة دخان «حمرا طويلة» وانصرفا. تبين أن لا علاقة لي بالموضوع، ولكن المشكلة أن معدتي لم

تتقبل الورق الذي لم يطحن بعد، فأخذت أتقيأ، فناولني أبو داود إناء بلاستيكياً أبيضَ لكيلا ألوِّث الأرض، وبدأ «السبرايت» الذي شربته كله يتدفق إلى الإناء. وأنت تعرف أنني لا أكتب الشعر إلا بالريشة والدواة، كتابة الشعر بقلم حبر ناشف إساءة للشعر، ولذلك فقد كان «السبرايت» الذي يخرج من معدتي أسود اللون.

جحظت عينا أبي داود وقال:

- افففف... أخطبوط!

- وبعد ذلك؟

قلت محاولاً تسريع الحديث، فتابع:

- دلقت السبرايت الأسود عند حافة الرصيف وأعدت الإناء لأبي داود.

- والقصيدة؟

- القصيدة أكملت طريقها باتجاه «الإيكزت»... ولا أدري إن كانت قد خرجت أم أنها لم تزل في الأمعاء تتعرض للهضم.

- وماذا تقول هذه القصيدة المفعمة بروح التمرد؟

- بشرط، ألا تخرج كلمة من فمك.

- بالتأكيد.

- هي قصيدة قصيرة من مقطعين، فأنا أحب التكثيف كما تعلم. ماذا أقول في أول مقطع؟

- ماذا تقول؟

- سقطت ورقة التوت... فقط لا غير.

- سقطت ورقة التوت؟

استهجنتُ، فردَّ موضِّحاً:

- أنت قد ترى أن المعنى في قلب الشاعر، ولكن المخابرات أذكياء، المخابرات يا سيدي أذكى مما تعتقد بعشرات المرات.

- لن يقوم أحد بإعدامك لأنك قلت إن ورقة التوت قد سقطت، أين المشكلة؟

- أنا لست خائفاً من هاتين الكلمتين، والمخابرات لن تحاسبني عليهما، المخابرات يا سيدي ستحاسبني على ما بين السطور التي لا ترى أنت ما بينها.

- أي سطور؟

- ورقة التوت. أنا لا أريد أن أريهم أن ورقة التوت سقطت، أنا أستخدم رمزية ورقة التوت، ما الذي يحدث عندما تسقط ورقة التوت؟

- الرمز واضح؛ تنكشف العورة.

- عورة من؟

- عورة السلطة. والمخابرات تفهم ذلك جيداً، فأنا لا أقصد عورة أبي فارس أو عورة أبي داود، وإنما عورة السلطة.

لم أستطع أن أخفي تهكُّمي، وقلت له:

- والله نفذت بجلدك.

- المقطع الثاني أخطر من المقطع الأول بمليون مرة.

قال دعميص من دون أن يلحظ نبرة التهكم في تعليقي. فسألته:

- هل تلجأ إلى المباشرة في المقطع الثاني؟

- لا، بالعكس. ذروة الترميز. أقول: ماتت دودة القز في الشرنقة. قبل أن تفتح فمك، أنت ستقول المعنى في قلب الشاعر، ولكن المخابرات يا سيدي أذكى مما تظن، ولن ينظروا إلى المعنى الذي في قلب الشاعر، سيتوجهون بأنظارهم فوراً إلى الإسقاطات، وساعتها... يا إلهي ما الذي سيحدث ساعتها!

- يا سيدي الحمد الله على سلامتك...

قلت قبل أن يبدأ بالشرح المفصل، فردَّ قائلاً:

- الله يسلمك.

ثم بعد صفنة تابع:

- ولكن رجاء أخوي حار... لا تذكر ما قلته لك أمام أحد. أنا بحت لك بما كتبت لأنني أثق بك.

- لا تقلق يا رجل... معقول؟ أتراني مخبراً لأفعل ذلك؟

ثم بعد صمت ربما رافقته صفنة، لوح بيده وقال:

- يا سيدي إذا تريد نشرها فانشرها، ولكن لا تضع اسمي

عليها. انسبها لمحمود. هذا شخصية اعتبارية ولا فرق لديه، وهم حتى لو شتمهم سيستقبلونه في المطار بسيارة فخمة. محمود قامة يا أخي. عنده حصانة.

النصف الفارغ

بعد أن استوطن الاكتئاب في نفس كمال، ولم تعد تنفع أساليب المعالجة النفسية التقليدية في طرده من هناك، بدأ يعاقر الخمر. ومع أن ذلك ساعده في البداية لكي يخرج من تلك الحالة، إلا أنه في مرحلة لاحقة تحول إلى وقود يؤجج ذلك الاكتئاب المستفحل، الأمر الذي دفع كمال إلى مراجعة طبيب العصبية الذي لم يكن كمال حالة فريدة لديه، فكل يوم يراجعه العشرات من أمثال كمال، منهم من تفوق حالته حالة كمال بدرجة كبيرة.

لم يفكر الطبيب طويلاً، وخط له وصفة اعتاد أن يخطها كل يوم. وكمال بدوره توجه إلى الصيدلية واشترى من هناك الحبوب التي وصفها له الطبيب، وبالفعل فقد تحسنت أحوال كمال وبدأ يرى الأبيض أبيض والأسود أبيض، وانزاحت تلك الغمامة عن

عينيه نهائياً، وعادت أسنانه البيضاء المرتبة تظهر من جديد بعد أن عادت الابتسامة إلى شفتيه.

ولكن حال الحبوب لم يكن بأفضل حال من الخمر، فسرعان ما اعتادت خلايا دماغه عليها ولم تعد تقدم له الفائدة المرجوة منها، ما دعاه لمراجعة الطبيب الذي وصف له حبوباً أشد فتكاً بالاكتئاب من تلك التي كان يتناولها.

مرة أخرى عاد الأسود أبيض، واختفت المنغصات من حياة كمال، ولكن إلى حين فهذه الحبوب أيضاً اعتاد عليها دماغه، وسرعان ما توقف عن إرسال إشارات الفرح الكاذب إلى أعصابه المتلفة.

تداعى الأصدقاء بعد أن شعروا بالخطر على صديقهم السوداوي، وتساءلوا عن سبب اكتئابه لعلَّهم يستطيعون مساعدته، ولكن سؤالهم هذا كان أشبه بصب الزيت على النار، فقد أزعجه أن أصدقاءه لا يرون ما يراه، ما يعكر النفس ويثقل كاهل الروح ويحرق الأعصاب، وصاح بهم:

- ألا ترون ما أراه؟ ألا تسمعون ما أسمعه؟ أليست لكم عيون وآذان؟ انظروا إلى ما يجري وستشعرون بضعفي ما أشعر به من الاكتئاب!

- لا تنظر يا أخي، افعل كما يفعل الجميع.

- لي عينان.

قال كمال يائساً.

وهنا فهم أحد الأصدقاء أن كمالاً لا يزال في طور العذرية العقلية، ووضح له الأمور:

- لا تنظر إلى النصف المملوء. انظر إلى النصف الفارغ وسترى كل الأمور بعيون أخرى.

عمل كمال بنصيحة أصدقائه ولم يعد ينظر إلى القذارات التي أترع بها النصف الملآن، وأخذ ينظر إلى النصف الفارغ، لم يكن هناك شي غير الفراغ، ولكن الأمل بأن يمتلأ هذا الفراغ يوما ما بأشياء جميلة قضى على الاكتئاب الذي كان يسببه النصف الملآن في حياة كمال، وانقطعت زياراته لأطباء النفس والأعصاب.

ضمائر

تأنيب الضمير، كلمة سمعها للمرة الأولى في حياته عندما كان في سن الطفولة، وظل لفترة طويلة يتصور الضمير كائناً، عندما يخطئ صاحبه يتجسد له في الهواء ويقف في مواجهته موبخاً إياه بكلمات كان يسمعها من أبيه وأمه. ثم في فترة لاحقة بدأ يتخيله كشرطي يحمل هراوة وعلى حزامه مسدس بجراب جلدي، ولكن بعد أن وعى قليلاً وأدرك أن مثل هذه الكائنات محض خرافة لا يمكن أن تتجسد على أرض الواقع، بدأت المسألة تحيره، فكيف يظهر الضمير لصاحبه؟ وكيف يؤنبه؟ وما هي الكلمات التي يقولها له؟ ومتى يحدث ذلك؟ وغيرها الكثير من الأسئلة التي لم يستطع خياله البالغ أن يجد لها تفسيراً كما فعل خياله الطفولي في السابق. وبما أنه يتمتع بـ«أنا أعلى» يقظ وفي حالة استنفار دائم، فإنه لم

يتمكن من ارتكاب إثم يجعل ضميره الشخصي ينبش له ويؤنبه، فيتعرف على الموضوع بالتجربة الشخصية. وفي أكثر من مرة عقد النية على توجيه السؤال إلى بعض معارفه، ولكن أناه الأعلى أوقفه قائلاً: «سيعتقدون أنك ساذج». فيتراجع عن السؤال، مع أن المسألة ظلت تحيره.

وذات سهرة وبعد أن جرع عدداً من الكؤوس، استغل حالة الثمالة التي سقط فيها أناه الأعلى وقرر أن يوجه السؤال في غفلة منه إلى صديق كانوا يلقبونه بالفيلسوف، ولكن أناه الأعلى الذي شعر بالمؤامرة في اللحظة الأخيرة، تمكن من رفع رأسه لحظة وقال له بلسان ثقيل: «تصنَّع المزاح كيلا يعتقدوا أنك ساذج». فابتسم وتصنع أنه يمازح الفيلسوف وسأله بنبرة توحي بالمداعبة، بعد أن استرخى على الكرسي:

- بماذا يشعر الإنسان عندما يؤنبه ضميره؟

لم يكن الفيلسوف يحتاج إلى تفكير للإجابة عن الأسئلة، فقد كان لديه إجابات لها كلها، ولو كان أصدقاؤه أكثر دقة لأطلقوا عليه لقب «ألف جواب لألف سؤال»، ولذلك رد على الفور:

- حسب نوع الضمير... فإذا كان متصلاً، فتك بصاحبه، لأن هذا النوع من الضمائر لا يسهو ولا يغفو، ويقف لصاحبه بالمرصاد. وأصحاب الضمائر المتصلة أشخاص يعيشون في عذاب دائم، وغالباً ما ينتهون إما في السجن وإما مصابين بالشيزوفرينيا وإما

منتحرين، لأن ضمائرهم في حالة استنفار مستمر. وأنا أسميه الضمير العضال، لأنه يقتل صاحبه.

- ولماذا يعطونه الفرصة لذلك؟ ليفعل كل منهم ما يرضي ضميره ويتخلص من هذا العذاب؟

- الأمر ليس في أيديهم، فجميعهم عادة ما يكونون مصابين بمتلازمة «المبدأ»، ولذلك يطلقون الشعارات والوعود ثم سرعان ما يكتشفون أنها غير قابلة للتطبيق، ولكن بعد أن ورطوا الناس بها. وهنا يخرج لهم ذلك اللئيم، ضميرهم المتصل، ويرتكب بحقهم الجرائم.

- يا ساتر! ضمير حقير... هذا المتصل.

- حتى إذا لم تفعل شيئاً، يجد لك ضميرك المتصل مبرراً لكي يؤنبك. أعرف صديقاً يعاني من ضمير متصل يؤنبه على خطأ نبشه له من الذاكرة، حدث معه قبل ثلاثين عاماً عندما كان في الصف الرابع، في المدرسة الابتدائية، جريمة اغتصاب.

- اغتصاب؟!! في الصف الرابع؟ هذا يستحق القتل وليس تأنيب الضمير.

- لا تتسرع في الحكم... هكذا سماها ضميره المتصل، لكي يمعن في تعذيبه. لم يكن ذلك أكثر من اغتصاب سندويشة فلافل من يد تلميذ في الصف الثاني... تصوَّر!

- لعنة الله على هذا الضمير! هذا بلاء وليس ضميراً.

- نعم... أنت على حق. ولكن ما يثلج الصدر أن قلة قليلة فقط تعاني منه، أما البقية فيعانون من ضمير آخر أقل حدة، هو الضمير المنفصل.

- وبم يتميز هؤلاء؟

- هؤلاء يتميزون بقوة الشخصية وثبات الحجة والبرهان، ويتعاملون مع ضمائرهم تعامل الند للند، فمثلاً ليس كل ما تراه ضمائرهم خطأ يعتبرونه خطأ، ويمكن القول بكلام مختصر إنهم سحبوا من تلك الضمائر حق الفيتو، تستطيع أن تبدي رأيها، ولكن هذا الرأي غير ملزم، كما أن الضمير المنفصل يتميز بأنه يشعر بالتعب ويضطر إلى النوم أحياناً، وعندما يشعرون أن حجة الضمير قوية يحتالون عليه.

- كيف؟

- عندما يستيقظ ويسألهم عن أخطائهم... يخدعونه.

- أففف... كيف؟

- يفهمونه أن السبب مؤامرة.

- ويصدق ذلك؟

- لا يصدق. ولكنه يخشى أن يتهم بالاشتراك فيها فيفضِّل الصمت.

- ضمير متواطئ.

- مجبر على ذلك، لكيلا يصيبه ما أصاب الضمير المستتر.

- وهذا... كيف يعاني أصحابه؟

- هذا أصحابه لا يعانون، فهو إما هارب وإما في غياهب السجون، ويمكن القول إنه هو الذي يعاني من أصحابه، أما هم فيرتكبون السبعة وذمتها.

- طبعاً... لأنهم بلا ضمير.

- لا... ليسوا بلا ضمير، لأن الإنسان لا يستطيع العيش بلا ضمير. ولذلك يستخدمون ضميراً مستعاراً يزين لصاحبه الوزر لكي ينام قرير العين، حتى لو أراد الشخص أن يسرق أباه.

- طيب... وأولئك الذين يطلقون الشعارات ويتزمتون لها مثل أصحاب الضمير المتصل، وحجتهم قوية لدرجة أنهم يقنعونك أن العنزة ذكر والتيس أنثى مثل أصحاب الضمير المنفصل، ويرتكبون العشرة وذمتها مثل أصحاب الضمير المستتر، ما وضعهم في فلسفتك؟

- هؤلاء ضمير الواحد منهم يشبه الزائدة الدودية.

- يؤلمهم... و«ينقِّف» عليهم؟

- لا... لا يؤلمهم... ولا ينقِّف عليهم... لقد استأصلوه بعد التأنيب الأول.

ممدوح حمادة

كاتب سوري مقيم في بيلاروس منذ العام 1984، حيث درس فيها الصحافة. عمل مدرِّساً في إحدى جامعاتها ما يقارب العشر سنوات، ثم درس الإخراج السينمائي في أكاديمية الفنون فيها.

يكتب السيناريو التلفزيوني منذ العام 1995. له الكثير من الأعمال الساخرة (منها: بطل من هذا الزمان، بقعة ضوء، ضيعة ضايعة، الخربة، ضبوا الشناتي) وعدَّة أعمال موجَّهة إلى الأطفال.

يرسم الكاريكاتير بشكل متقطِّع، نشر العديد من رسومه في الصحف البيلاروسية، وشارك في معارض دولية مختلفة. نشر العديد من قصصه في الصحف العربية والبيلاروسية. وترجم عدَّة مجموعات قصصية.

صدر له:

1. فنُّ الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، 1999.

2. فنُّ الكاريكاتير في الصحافة الدورية، 1999.

3. صانع الفراء، مسرحية للأطفال، 1999.

4. المحطَّة الأخيرة، رواية، 1999.

5. جلَّنار، رواية، 2001.

6. أمُّ الطنافس، مجموعة قصصية، 2014.

7. دفتر الأباطرة، مجموعة قصصية، 2016.

8. دفتر الحرب، مجموعة قصصية، 2016.

9. دفتر القرية، مجموعة قصصية، 2017.

10. دفتر الغربة، مجموعة قصصية، 2018.

11. دفتر الهذيان، مجموعة قصصية، 2019.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



دائماً:
يدٌ سوداء
تطرقُ بابَ الحلم
فأهربُ إلى النافذة
وخلفي يركضُ بابٌ
تطرقُه يدٌ سوداء
وأمامي
تركضُ نافذة.

اللاوعي عالمٌ يزخرُ بالحياة، تلك التي لا قواعدَ لها ولا شكلَ محدداً مسبقاً؛ إنها حياةٌ تشبهُ الموجَ المتلاطم، تجري فيها قصصٌ لا يعرفها إلا أصحابُها، ونادراً ما تخرج إلى الورق. إن خوضَ غمار هذا البحر أمرٌ في غاية التعقيد، ولكنه في غاية المتعة، وكلما ازادت معرفتك ازادت ظلمته، لأن الأفكارَ تُلقي بشوائبها فيها مشكّلةً بهذا الشكل نقائضَها التي تقضُّ مضجعنا كلما تبحَّرنا فيها.




دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع


ISBN 978-9933-540-52-4